
صور وذكريات مع
مصطفى خريّف
تأليف
محيي الدين خريف
الدار العربية للكتاب

صور وذكريات مع

مصطفى خريف

تأليف

محيي الدين خريف

الدار العربية للكتاب

ليبيا - تونس

صـــورة اولـــى :

كنت دائمـــا ابحث عن الفرصـــة التى اريد ان ابث فيهـــا ما يخـــالج نفسى ، من الذكريات التى عشتهـــا مـــع سيـــدى مصطفى خريف ، مـــدة طويلة من الزمـــن تزيد عن العشريـــن سنة ، كنت فيها الازمـــه ملازمة تامة الا فى فترات متقطعـــة .

ولكن لم اجـــد هذه الفرصة ، او حتى عندما وجدتهـــا لم تكن ظروفى تساعدنى على بث هذه الذكريات التى لا اجـــزم بانهـــا كاملـــة ، وذلك لهروب كثير منهـــا بمرور الزمن ، وافتقـــارى من جهة اخرى لبعض الوثائق المدعمة ، والتواريخ المصححـــة ، خصوصا لفتـــرة مزاولتـــه للدراسة فى جامع الزيتونـــة وفى العشرينات .

وأنا بعد هذا لا ازعم لنفسي اني ادرس شخصيته دراسة منهجية تقيم آثاره وتلقي الضوء الكاشف على كل شيء حوله ، او اعرف به تعريفا كاملا لما يمت به من صلة الرحم ، ولكني اجمع حوادث مشتتة ، وذكريات سمعتها منه شخصيا ، لست ازيد عنها الا ما تستدعيه الحاجة من الربط والسبك والصياغة ، فكل ما سوف اكتبه هو من مسموعاتي عنه . حاولت ان اضع له الاطار اللازم ليبرز في صورة جلية يمكن ان يجد فيها من يجهله بعض الملامح والسمات التي تعين على فهم شعره ، وسبر شخصيته ، مع معرفة الظروف التي احاطت بحياته ، والتي كان اكثرها قاسيا شديد الوطاة ، ولكنه عرف كيف يقتحمها بفلسفة استمدها وحده لنفسه من الحياة مباشرة ومن ثقافته العربية الرصينة التي تعلم منها ابدع مثل الشجاعة والصبر والايمان القوي الصامد بنفسه وبما وهبته هذه الظروف من معطيات .

كان ذلك في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، وكانت البلاد في اشد الظروف معاناة واضطرابا وتطلعا لحياة كريمة افضل . وكنا نحن الصغار في عائلة محافظة نتطلع لما يقوله الكبار من افراد هذه العائلة ، ونحفظ ما نسمعه من اقوال واشعار وحكايات واساطير عن ظهر قلب ، وكانت المطاوح قد شتت عائلتنا وقسمتها الى قسمين قسم منها اقام بتونس والقسم الآخر منها بنفطة ، وهكذا انفرد كل شطر من العائلة بسماته واحتضن تجاربه التي ورثها او التي اكتسبها من جديد ، وبقي شيء واحد لم يتغير في قلب كل واحد منها وهو الوفاء للقرية ، وعبر هذا الوفاء قيلت اشعار وانشدت اغان وكتبت قصص كانت كلها تشرق بالحب والولاء والاعتزاز بمواطن الاجداد . نجد هذا في اشعار مصطفى خريف وغناء « مباركة » « والزهرة » وقصص بشير

خريف وفى اشعــار عبد البــاقى خريف الهزليــة التى وصف فيها حياة القرية فى اسلوب فكه لا يخلو من الواقعية القاسية فى اكثر الاحيان .

وتتوالى الايام لتنداح كامواج البحر ، وتتواثب سراعا ثم تمضى مخلفة وراءها صورا وذكريات لا يمكن ان تمحى ، وكنا ونحن بنفطة لا نتصور خريفا بدون عم مصطفى ، فما ان تهل طلائعه وتصفر العراجين وتحمر حتى نتطلع فى كثير من الشوق الجامح الى عودة الغائبين من تونس . وكان سيسدى مصطفى لا يخلف وعده ، وفى غفلة يدخل الى البيت بدون ضجة ، القامة النحيلة ، والنظرات التى تبدو من ورائها عبناه المليئتــان بالوداعة والحب الغامر ، والجبــة الفضفاضة التى لا يريد لها بديلا ، والعصا ذات المقبض الفضى تقــرع الارض قرعا لينــا . عند ذلك تبادر الاخوات اليه مرحبات معانقــات ويلتئــم الشمل وكان الدار الكبيرة عند عودتــه تعــود لهــا حياتها وتصبح تعج بسكانها الذين يكنون لبعضهم كل محبة خصوصا اذا تغيب طويلا عن الدار .

وكان المكــان المحبب لسيــدى مصطفى هو « مقصــورة » السقيفــة ، التى تشــرف نافذتهــا علــى الشارع الرئيســى للقريــة ، هنــاك كان يشاهد الغاديــن والرائحين من « راس العين » ويستمع الى اغانى الواردات او الراجعين من الواحــة بأحمالهم من الحطب والعشب ، او يحادث من يجلس اليه من الاهل . وكثيرا ما كان يسبح فى غيبوبة صوفيــة ، تحملــة باجنحتهــا الى عــالم السدم والغيب ، فياخــذ كنشه ويكتب ما يخطر بباله من احاديث او اشعار ، وفيها يقضى جل اوقاته مطالعا وباحثا وكاتبا ، وفيهــا اقام مع على الدوعاجى عندمــا زار نفطة 1937 ، وعاش مع الشاعــرة المبدعة حدى الزرقى ،

ومع غيرهما فى مطارحات ادبية ، ومجالس شعرية التقت فيها المشارب والنزعات وتعانقت الارواح . وكانت « حدى » فى ذلك الوقت من اكبر الشاعرات فى عصرها ، قوة شخصية ، وفصاحة لسان وجودة شعر لا يقارع فى حسن صياغته وسلامة سبكه ، الشيء الذى جعل كل من عاشرها يفتتن بها ويتقرب اليها . وكان لقاؤها بعلى الدوعاجى فى نفطة من اخصب اللقاءات ، فقد امتزجت روحه الفنانة بروحها التى تشف عن طبع خالص وتتدفق بعطاءات لا يحدها زمان ولا مكان ، وكان من جراء هذا اللقاء ان كتب على الدوعاجى فى تلك الآونة قصة بعنوان « احلام جدى » استلهمها من قصيدة بعنوان الشمعة للشاعرة المذكورة وصفت بها حياة الصحراء فى تلك الاصقاع ، وسوف نعود لهذه القصة فيما بعد .

بيئة محافظة :

ومن اهم المؤثرات فى حياته . نشاته فى بيئة محافظة للاب فيها الكلمة الحاسمة .

فابوه الشيخ ابراهيم خريف ، جده الاول هو الشيخ التابعى بن ابراهيم خريف ، وقد كان مؤسس زاوية من اكبر الزوايا فى نفطة ، وهى الزاوية الوحيدة التى لم يتعاط ابناؤها ما كان يتعاطاه ابناء الزوايا فى ذلك الحين من شعوذة وتدجيل ، اذ ان منشئها رجل عالم اسسها للعلم ولقراءة القرآن وايواء ابناء السبيل من الوافدين على نفطة من جنوب الجزائر ومن الجنوب الشرقى التونسى ، خصوصا ابناء قرى نفزاوة والمرازيق ، وجعل لها احباسا وارياعا لصيانتها ، وكانت تقام بهذه الزاوية دروس فى العلوم اللغوية والدينية

للطلبة من اهـل البلاد وغيرهم . وكان الشيخ ابراهيم خريف والد سيدى مصطفى من الذيـن يدرسون بهذه الزاويـة . وفى وسط هذه البيئـة وفى 10 اكتوبر 1910 ولد سيدى مصطفى بمدينة نفطـة ، وذلك حسب ما وجد بمسجلات والده سيـدى ابراهيم خريف ، رغـم ان شاعرنا نفسه كان غير متثبت مـن تاريخ مولده بالضبط فتارة يقـول انه ولد فى سنـة 1909 ، وتارة اخرى نجد فى بطاقة التعريف التى استخرجها اخيرا انه مولود فى 1912 ، وكان والده الشيخ ابراهيم خريف المذكـور يدون تاريخ ولادة ابنائه ، وقد عثرنا اخيرا على وثيقة تثبت ان سيدى مصطفى ولد فى اكتوبر 1910 كما ايـد ذلك عمنـا الشيخ حسن خريف . اما امه فهى شريفة بن ميلاد ، من عائلة ابن ميلاد المشهورة بتونس العاصمة . ووسط هذه البيئة نشأ وترعرع واخذ ملامحه العاطفية التى بلورت شخصيته وطبعته بطابع الحساسية والآنفة وحب المجد ، فقد كان كل من فى هذه العائلة يمت بسبب للادب وللشعـر خاصة ، فاختـا سيدى مصطفى وهما مباركة والزهرة شاعرتان تكتبان الادب الشعبى وكان لكل واحدة منهما طابعها ومميزاتها . فمباركـة كانت من اول المشاركات فى الحزب الجديد بشعبة نفطة التى تألفت عقب مؤتمر قصر هلال سنة 1934 مباشرة وقد سجلت بشعرها احداث تلك الفترة وما طرأ من تغيرات اجتماعية حتى نهايـة 1942 .

أما الزهرة فهى شاعرة مطبوعة ، فى شعرها الرقة والحلاوة والعذوبة ، وهى اقرب الى الطبع من مباركة ولا نستغرب هذا اذا عرفنا انها تلميذة من تلامذة حدى الزرقى المجيدات .

وابوه الشيخ ابراهيم خريف شاعر مؤرخ ، وهو صاحب الكتاب المخطوط « المنهج السديد فى تاريخ اهل الجريد » الذى تحدث فيه عن تاريخ الجريد عـامة ، وتاريخ العروش بنفطـة

عرشا عرشا ، وافرد اكثر من نصفه للحديث عن عرشه المواعدة ورجالها ، وله ايضا ديوان من الشعر ومجموعة من المقالات فى الاصلاح ، كان متأثرا فيها بجمال الدين الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا . وكان الشيخ ابراهيم يمتلك مكتبة تحتوى على كثير من النفائس المطبوعة والمخطوطة كانت هى البذرة الاولى التى غرسها فى محيط العائلة فاعطت اكلهـا وكانت مدرسة حية للبنات والاولاد .

اخــوتـــــه :

اما اخوته فهم الشيخ الناصر ، وهو والد كاتب هـــذه السطور ، حفظ القرآن فى نفطة وواصل تعلمه فى جامع الزيتونة الى التطويع ، ورجع الى نفطة حيث تولى خطة العدالة ثم امامة الجامع الكبير بعرش المواعدة . وكان تقيا ورعا زاهدا متصوفا

وبقية اخوته هم محمد بالفتح ، وحسن ، وعبد الرحيم ، وعبد العزيز ، وكلهم من ابيه ، اما شقيقاه فهما البشير خريف القصاص المعروف ومحمد الهادى الذى توفى 1946 ، وكانت له مشاركات تذكر فى ميادين التمثيل والموسيقى وتاليـف الاغنية ، ومن اغانيه التى ما زالت متداولة اغنية « لو كان نار اللى كوتنى كواتـك » . وقد اعتنى والدهم بهم عناية خاصـة فبنى لهم كتابا بجانب المنزل يزاولون فيه حفظ القرآن على يد مؤدب خاص بهم .

صحــة معتلـــة :

وكان سيدى مصطفى لا يفارق اباه ، فالاعتلال الصحى الذى كان يعانى منه منذ صغره جعل الشيخ والده يحيطه برعاية خاصة ، ولا يلزمه بدراسة الكتب المدرسية ، بل يلقى عليه

مسائل من النحو والصرف والبلاغة يستخلصها من نصوص كبار الكتاب والشعراء من المتقدمين . وهـذا النسق يتماشى مع ذوقه وطبيعة تكوينه . فكان الى آخر ايامه لا يرهق نفسه بقراءة شيء لا تطاوعه على قرائته . وقد شب سيدى مصطفى على ذوق مرهف حساس ، فكان يتحرى مواقع اللحن والهفوات اللفظية فجاء ابعد ما يكون عن عثرات اللسان والزلل عنـد النطق بالكلمات ، ولعل هذه الفترة من الدراسة ابقت له حب المحافظة على التراث ، والتعمق فى دراسته تعمقا واعيا ، فمن خلال مطالعاته المختلفة كان لا يغيب كتابان عن بيته وهمـا القرآن الكريم واخر من التراث القديم .

ومن الكتب التى اقتناها قراءة واعادها مرارا حتى تمزقت بين اصابعه الاغانى للاصفهانى ـ الكامل للمبرد ـ العقدالفريد ـ لابن عبد ربه ـ الخزانة للبغدادى ، نفح الطيب للمقـرى اللزوميات لابى العلاء المعرى ، واكثر الدواوين القديمة ومع حبه للمتنبى وافتتانه به لم اره مرة يمتلك ديوانه فى حوزته .

الهجـــــرة :

كانت الهجرة من نفطة عاملا من العوامل التى يتعلق به سكان هذه الناحية اما لطلب العيش او لتاثيل مجد وارضاء رغبات مختلفة فى النفوس الكبيرة ، والعجيب ان اكثر اغانى هذه البلاد تنعى الفراق وتنادى بالبين ، وكم مـن اهزوجة شعبية هزت كياننا ونحن فى ديار الغربة او على وشك السفر فافاضت دموعنا من عيوننا وجعلتنا نتعلق بالوطن ونحن على بعد اكثر من تعلقنا به ونحن على قرب .

وكانت طريق الهجرة هى الطريق التى سار فيها كل فرد من افراد العائلة ، بداية من الشيخ ابراهيم خريف الذى هاجر

من نفطة في سنة 1920 الى تونس تاركا وراءه املاكه وعقاراته وارضه فارا من ظلم الخلفاوات والقياد الذين كانوا لا يعباون بتقاليد ولا يراعون حرمة . وفي تونس استقر الجزء الاكبر من العائلة في ربط رحبة الغنم ، واقام شاعرنا من ذلك الوقت بتونس اقامة دائمة غير انه اشرب حب نفطة فكان لا يجد مناسبة الا زارها خصوصا وان الشيخ ابراهيم كان يحرص في كل سنة على ارسال اولاده لزيارة نفطة وبقية العائلة هناك .

فـــى تـــونس :

وفي تونس ادخله والده الى مدرسة الســلام القرآنية ، وكان مديرها في ذلك الوقت الشيخ الشاذلي المورالي ، وهو من اقدم المعلمين التونسيين وفيها تلقى سيــدى مصطفــى العربية تلقيا صحيحا كان من اساتذته الذين تاثر بعربيتهم وفصاحتهم في هذه المدرسة الشيخ محمد مناشو الذى كان من اكبر المحافظين على اللغة العربية ، وله تآليف في تبسيط علمي النحو والصرف . وقد رايت عند سيدى مصطفى كنشا به الكثير من مسموعاته عن الشيخ مناشو ، مع عديد من الاناشيد البديعة التي كان يرددها في اوقات انبساطه حتى اواخر ايام حياته . والفضل الاول في رصانة عربيته وفصاحته لما تلقاه عن والده اولا ولما لقنه في هذه المدرسة ثانيا . وقد كان لتثقيف نفسه بنفسه اثر بالغ في حياته .

شيــوخـــــه :

ومكث بمدرسة السلام ما يقرب من العامين ، ثم التحق بجامع الزيتونة وكان والده لا يرهقه بالنصائح ولا يتابعه باللوم لعدم المواضبة وذلك لما يشكو منه سيدى مصطفى من

علل جسمانية ، فكان لا يحضر من الدروس الا ما تتوق اليه نفسه مثل دروس التفسير واللغة والحديث والنحو والصرف والبلاغة .

وقد وجدت بمخطوطاته ثبتا لبعض مشائخه وهم :

البشيـر النيفـر	التـاودى
الطاهر بن عبد السلام	الاشمـونى
الشاذلـى ضيف	بلاغة وسطى
صالـح مـراد	حزب سبح
محمـد مناشـو	الرحبيـة
محمد العنـابـى	الدرديـر
عـلى النيفـر	اصـول

وكان ذلك فى سنة 1929 على ما يظهر من المذكرات التى دونها فى احد الكنانش الكثيرة التى تركها .

لقــاء فــريــد :

كان لقاء فريدا ذلك اللقاء الذى امتزجت فيه روحان غريبتان ليستا من طراز عادى هما روحا خريف والشابى .

وقد تم هذا اللقاء بفضل عوامل متعددة جعلت منهما صديقين حميمين لا يمكن ان يمر التاريخ على صداقتهما بدون ان يقف ويتريث . من هذه العوامل انتماء كل من الشاعرين الى جهة واحدة هى جهة « الجريد » ، تلك الجهة التى تفردت باعطاء سمات خاصة لابنائها ، منها الحدة والذوق المرهف وسرعة البديهة والخيال الخصب الذى يفرضه جو الواحات

ومناخ الصحراء . فالشاعران كانا متفقيـن فى جل هـذه الصفات . ومن العوامل التى ربطت بينهما ايضا الصداقة التى كانت تجمع بين ابويهما الشيخ ابراهيم خريف والشيخ محمد الشابى والد ابى القاسم . فقد كانا كثيرا ما يلتقيان فى بيت الشيخ ابراهيم بنهج سيدى زهمول عدد 17 ، وتوطدت هذه الصداقـة بين الشاعرين فى ايـام الطلب بجامـع الزيتونـة عندما كان الشاعران يزاولان تعلمهما به ايام كان ابو القاسم يقطن بالمدرسة اليوسفية بنهج الصباغين ، وكان لقاءهما لقاء الامانى المتفتحة والآمال العريضة التى اتحدت فى حب الادب والعمل المبكر فى ميدانه بجد لا يعرف الكلل اليه سبيلا .

وسيدى مصطفى ، برغم انه كان ندا للشابى ، الا ان مواقفه منه كانت دائما مواقف المعجب الذى لا يجد لأعجابه حدا ازاء تلك العبقرية الفذة حتى وصل به اعجابه فى بعض الاحيان الى حد التقديس ، فنراه يجله ويحترمه ويستشيره ويعمل بنصائحه ، ومما سمعته منه قوله : كنت اذهب الى الخلدونية ، وربما دخل ابو القاسم الشابى فوجدنى منكبا على المطالعة فيلاحقنى باستشاراته ويسالنى بالحاح عما اطالع . وهو الذى لفت نظرى الى مترجمات الادب الغربى التى كان يقرأها بنهم فى ذلك الوقت . ومما قرأنا مترجمات الزيات عن الادب الفرنسى وكتب طه حسين والعقاد والمازنى ووقفنا طويلا عند شعراء المهجر شماله وجنوبه .

الشـــابى وجبـــران :

وكان الشابى يقدر جبران ويعجب به ويلتقى معه فى عدة اشياء مثل حب الطبيعة والتمرد عـلى الاوضـاع السائـدة وتقديس الطموح ، والدعوة الى التطور ، وقيام ادب كل واحد

منهما على الصدق الشعورى ، ومن الامثلة البينة على التقاء الشابى بجبران قصيدة « النبى المجهول » للشابى و « المخدرات والمباضع » لجبران فان المطالع لا يجد فرقا بين محتوى القطعتين .

ثقـــافتــــه :

ورغم ان سيدى مصطفى قرأ الشعر المهجرى كثيـــرا والمترجمات الغربية ، وادب مدرسة « ابولو » الرومانيسية ، الا ان تاثير هذه المدارس عليه كان نزرا قليلا لا يتجاوز فترة العشرينات . ونجد ذلك فى قصائد « اى وربى » و « الحب المفلس » و « انشودة الفجر » ، ففيها نجد بعض الملامح المهجرية من حب للطبيعة واغراق فى الحزن وتشاءم ليست له مبررات واضحة .

الا ان ثقافة سيدى مصطفى العربية وتمرسه بـالادب القديم وادمانه على قراءة كتب التراث فى مختلف العصور جعلته بطبعه ينأى عن المدرسة الرومانسية رغم انه عاشها على جميع المستويات ، وتقلب فى فترة كانت كل البلاد العربية تتغنى بالادب الرومنسى لا فى الشعر فقـط بـل حتى فى الاغـانى الشرقية المتداولة بكثرة فى المقاهى العربية فى ذلك العهد .
ونراه يتمثل جميع ما يقراه ويطبعه بطبعه الخاص وصيغته المتميزة التى هى اقرب الى المدرسة التقليدية الرصينة منها الى اى مدرسة اخرى . وهذا هو الشىء الذى بوأه المكانـــة المتازة بين الشعراء المحافظين فى عصره ، اى من بدايـــة الثلاثينات حتي اواخر الاربعينات . وقد كانت له فى صناعته الشعرية صبغة خاصة وذلك فى اختياراته للاوزان الطريفـــة الغريبة فى اكثر الاحيان والقوافى ذات الجرس الخاص . وقد

كان فى ذلك اقرب الى مدرسة شوقى وحافظ . باشتراك خصائص كل من الشاعرين الكبيرين منه الى اى مدرسة معاصرة اخرى له فى الفترة التى عاشها .

ومن اقدم الاشعار التى نجد فيها تاثره بالادب المهجرى هذه القصيدة التى كانت من اول ما نشره بجريدة الوزير لصاحبها الطيب بن عيسى سنة 1924

خل قلبي خالياً من ضجري ونواحي
واتل ما انشدته في سهري وانشراحي
واسكب الألحان بين الوتر والقداح

وكانت بينه وبين الشابى مراسلات متصلة خصوصا بعد وفاة والد ابى القاسم عند ما اصبح الشابى يطيل الاقامة بتوزر ، فقد كان يكلف سيدى مصطفى بما يحتاج اليه فى العاصمة من كتب ومجلات . وعندما كان ابو القاسم الشابى يعمل فى جمع ديوانه « اغانى الحياة » كان خريف يعمل معه فى توزيع الاشتراكات ، وقد كان يظن انه سيطبعه فى مصر غير ان المنية عاجلته ولم يتحقق له ان يراه مطبوعا فى حياته . وقد كان احمد زكى ابو شادى من المحرضين له على طبعه بالشرق .

مذكرات :

وقد وجدت مذكرات تؤرخ فترة ما بين 1928 و 1930 وفيها اشياء محققة عن مشائخه الذين ذكرتهم سابقا وتصوير للحال المضطربة التى كانت عليها الزيتونة فى ذلك الوقت وسانقل بعضها كما هى

الجمعة 29/1/17 غدا بحول الله اذهب الى الجامع اطبع الدفتـــر .

السبت 29/10/18 ذهبت هذا اليوم للجامع فلم يمكن طبع الدفتـــر .

السبت 29/10/24 قمت على الساعة السادسة والربع ادعو الله ان يسهل لى فى طبع الدفتر اليوم . ويلاه لست املـــك درهمـــا .

الاثنيـــن 29/10/26 بعت بعـض الـكتب وسمعت ان قصيدتى قد برزت فى تقويم المنصور . والقصيدة التى ذكرهـــا مطلعهـــا :

غـربتْ شمـس صبَـــايَــــا خلـف اطـــواد الابدْ
ومحـت أسطـــره كـــفّ الـرزايـــا والنـكـــدْ
فـاعتـدى شبحــا ضئيـــلا بيـن اشجـــار الخلـدْ
كلمـا مـرت بـه الـذكـــرى تـــولاّني السّهـدْ

وهى بعنوان (عهد الصبـا) ، ويلاحظ القارىء انهـا من الشعر الذى نظمه فى اوائل ايامه . ويدل على ذلك ما فيها من ضعف فى التعبير والتجاوز لقواعد اللغة . ونجد ورقة اخرى من هذه المذكرات تدلنا على مدى مشاركته فى الحوادث التى كانت جارية فى ذلك الوقت بجامع الزيتونة ، وهى الحوادث التى كانت لها صلة كبيرة بالعمل التحريرى لبلادنا . والتى منها المطالبة بالاصلاحات فى مجال التعليـم الزيتـونى . وكـــان المحركون لهذه الحوادث يعملون يدا بيد مع افراد رجال الحزب

الحر الدستورى فى ذلك الوقت الحرج من اوقات التطلـــع للبعث .

السبت 29/11/19 ـ ها انا دخلت دورا اخر فى القضية الزيتونية وصرت عضوا عاملا في اللجنة السرية ، انى انتظر س 9 ضابط السر لتلقى التعليمات من الحزب الحر ولم يقع الاضراب . « جاسوس » والذى اريد ان اصل اليه هو التعرف على الدور الذى قام به سيدى مصطفى خريف مع ابى القاسم الشابى فى اعانته على طبع محاضرته فى كتاب وهى « الخيال الشعرى عند العرب » ونتبين من هذه المذكرات انه احتضن طبعه وقام على تصحيح مسودته واخرجه من الطبعة . وحمله الى الدار التى يسكنها بنهج سيدى زهمول عدد 17 .

29/8/5 انى لفى غاية الشوق الى نفطة . عجبا لابى القاسم انه زعم فى كتابه انه سيكون اليوم بالحاضرة ليسافر مع عائلته الى توزر . ولكنه لم يات حتى الآن . اليوم ابيض رسالة « البلاغ » والملاحظ انه كان يعمل مراسلا لجريدة « البلاغ » المصرية فى ذلك الوقت مقابل كتب ومجلات تبعث بها اليه الجريدة وفى نفس اليوم 8/5 عندما ذهب لتوديع اخيه حسن وجد ابا القاسم الشابى مسافرا فى رتل 3 الى الجريد واخبره انه ترك له مكتوبا عند الزين السنوسى « فغدا فى الصباح اذهب الى المطبعة اطلب المكتوب »

الثلاثاء 29/8/6 لم اجد الزين ليعطينـــى المكتـــوب . ندمت على عدم سفرى الى الجريد وانى الآن فى غاية القلق افكر اين وكيف اقضى هذه الايام الطويلة

الاربعاء 29/8/7 عجبا . انى كثير النسيان .

لقد قال لى ابو القاسم ان المكتوب تركه عند المهيدى ولكننى

ظننته قال انه عند السنوسى وها قد وجدت المهيدى واعطانى اياه . سابحث عن عناوين هؤلاء ــ المازنى ــ طه حسين ــ جبران مخائيل نعيمة ــ الخضر حسين ــ غدا ان شاء الله .

كتبت جل الفصل « ادبنا وادباؤنا » وساطلب من البشير ان يخصص لى مكان « سانحة » لتاملاتى فقد قال لى بن شعبان انها ستعطل .

الخميس 8/8/ 29 وجدت العناوين التى طلبها منى ابو القاسم وساكب اليه اليوم الآن انتهيت من كتابة رسالة لابى القاسم ، ولكنى نسيت فلم اقل له اكتب عنوانك على كل هدية نسخا لبعض المكتباب الشرقية كما تطلب . ساقول له ذلك فى رسالة اخرى .

الاثنين 15 . 8 . 29 اراد الزين ان يزيد على ابى القاسم مائة وخمسين فرنكا اجر التسفير فقلت له يجب ان يكون السفر بسيطا .

الاثنين 29.8.17 ما اكذبه اظن انى اخذ النسخ غدا مساء .

الخميس 18 . 8 . 29 عسى ان تحضر النسخ اليوم . فى هذا اليوم تفرجت على رواية « البؤساء » فى سينما «البلمريوم»

الجمعة 29.8.19 ذهبت امس الى المحافظة وبيــدى نسختان من « الخيال الشعرى » فاخذته وقالت : بعد غد هيا اى اى نهار السبت .

السبت 20 . 9 . 29 اليوم موعد المحافظة وانا قمت باكرا ، ها هى الساعة امامى السابعة والربع . لا اكسب نقودا لاكتب لابى القاسم الشابى ... ما هذه الضائقة .. ساطلب الوالدة

اعطتني فرنكين . ذهبت مع سيدى الجنيدى الى ادارة المحافظة فاخرتني الفتاة السمراء الى يوم الثلاثاء . قبح الله هـــذه الحكومة ـ انا الآن في قهوة عزيز ساكتب مهما كانت الحال الى ابى القاسم . كتبنا له ، فطرت انا والجنيدى .

الثلاثاء 23 . 8 . 29 اليوم اذهب الى المحافظة لاخـــذ التصريح ـ ما اطول لحيتي ـ ساحلق وبعده اذهب .

اذا لم ينشر لى الخنقى في هذا العدد اعاتبه عتابا مرا . اتانى اليوم كتاب من ابى القاسم الشابى يعاتب ويلوم ولم يصله كتابى الاول يجب ان اكتب اليه اليوم .. لو كان عندى فلوس . لا حول ولا ... ذهبت الى الداخلية واخذت الاذن ،

الاربعاء 24 . 8 . 29 لدى الان 400 نسخة من الخيـــال الشعرى اخذتها الصباح فنقص ما يلى : 46 نسخة بين 40 الامين و 40 الثمينى و 5 على و 1 المكى .

وجدت الآن كتاب ابى القاسم وفيه يلوم الزين على عدم كتابة حقوق الطبع محفوظة . سارسل له ثلاثمائة منها 50 لـــاعـــة .

وهذه المذكرات الموجزة التى تحدد فترة من اهم فترات تاريخنا الادبى خصبا وثراء ، رغم قصرها وابعادها فى الاشياء الذاتية تعكس لنا اضواء على زوايا مازالت معتمة بالنسبة لشاعرنا وللمحيط الذى دار فى فلكه . وقد يقول القارىء لماذا لم تنظم هذه المذكرات وتنشر بعد التعليق عليها او حتى كما هى ، وانا اجيبه بان هذا الكنش الصغير الذى وجد فى مخلفات سيدى مصطفى لا يحمل عنوانا وليس له حتى غلاف ولا تتعدى الفترة التى دون فيها هذه المذكرات شهرين او ثلاثة ما بين

عام 1929 و 1930 . ولكنها على كل فقد اثبتت لنا العلاقـة الوطيدة بين سيدى مصطفى وابى القاسم الشابى ، تلك العلاقة التى متنتها روابط الجهة واتصالات العائلة مع بعضها . وفوق كل ذلك وشائج الادب والتجاوب الروحى ووحدة الاهداف وقديما قال ديك الجن الحمصى :

دعـاك اخ لم تحوه بقرابة　　بلى إن إخوان الشكول أقـارب

وقال حبيب بن اوس الطائى :

وقرابة الادباء تفضل دونها　　عند اللبيب قـرابة الأرحام

ولعلنا ونحن بصدد البحث دائما نصل الى بعض المفاتيح التى تعيننا على الوصول الى ما لم يزل مجهولا وغامضا من حياة هؤلاء الرواد الذين حملوا الشموع واحترقوا قبل ان يبلغوا من دهرهم ماربا .

اربعينيـــة الشـــابى :

ومات الشابى وغام صمت الحزن الذى يغيم دائما ، ولم يستطع سيدى مصطفى ان يجد مخرجا لاحزانه فى الابان . وعندما اقيمت للشابى اربعينية لم يشارك فيها خريف ، غير انى سمعته يتحدث مرارا عن جـو هذه الاربعينيـة . وعـن المشاركين فيها ويخص بالذكر الشيخ على درويش الحلبى الذى عزف قطعة على الناى افتتح بها مهرجان التابين . وبيرم التونسى الذى الف قصيدة من ابدع ما الف فى تلك المناسبة مطلعها :

ارى غـابـة طيرها صـادحٌ　　يـرد على جوء ذربـاغـم
وهذي الربا قد كستها الزهور　　ولست هنـايـا بـا القاسم

ومن الابيات التي كان سيدى مصطفى يرددها من هذه القصيدة :

الافلتـريقـوا عليـه الـدمـا   وان اعوزتكم فهـذا دمـي

روضـة الشـابى :

غير ان شاعرنا لم يترك شجنه يمر بدون ان يسكبه فى كؤوس حزنه على صفيه وخليله ابي القاسم الشابى . وعندما سعى اهل الغيرة على الادب لاقامة روضة للشابى بتوزر ، كان اول من وقف على هذه الروضة وقرا شعرا ، هو سيدى مصطفى . وكان ذلك فى الذكرى الاولى لوفاته ومطلع هـذه القصيدة :

الذكراك للفصحي و امجادها عيد   تقـام به البشري وتتلى الأناشيد

وكان بعد ذلك لا يترك فرصة الا ويتذكر فيها الشابى .

وفى الذكرى السابعة لوفاته نظم قصيدته التى مطلعها :

مهمـا توارت بعهدك المدد   فاتت فذ الطراز منفرد

وكانت عادته فى المراثى ان يسلك طريقة خاصة . وهى طريقة المحاورة بينه وبين الشخص الذى يرثيه . ويبعد بذلك عن الرثاء المبتذل . الحسرة والدموع التى لا تجدى نفعا . ويتخذ من طريقة الشخص فى الحياة والادب طريقا للمحاورة يناقشه اراءه فى ذلك ، ويساله هل تحقق له ما كان ينادى به ، وما كان يدعو اليه فى حياته الاولى . وربما حاوره عن

حياته فى الاخرة كما فى قصيدته هذه عن الشابى ، فهو يساله عن تحرره من الجسد واتصاله بالملا الاعلى وتمرسه بالكل والبداية والنهاية .

شجـون صادقـة :

غير اننا نجد فى هذه القصيدة ، شجو الحب الحقيقى ، والحزن الذى لا تبلى الايام جدته ، يستشيره الشاعر من وراء السنين السبع التى مضت على وفاة الشابى الراحل العزيز . ويتغنى فى استعماله للفعل .. واختيار الافعال الحية التى تكاد تنطلق ، وياتى بمجموعة منها ذات صدى خاص ، وجرس حزين متعب مثل افعلل ــ تمطت ــ وحملت ــ وتتئد وآدها ويصور ابدع تصوير وذلك حيث يقول :

تَمَطَّتِ السَّبْعُ بيننا فمشتْ مملَّةً كالقرون تَتَّئِدُ
كأنها حمّلت صبابتنَا وآدها من فراقِك الكَمَدُ

فهذه الصورة العجيبة ، صورة السنين وهى تتئد وتمشى ثقيلة الخطى ، كانها حملت صبابة الشاعرين واثقلها من جراء ذلك الفراق والكمد ، توحى بحب هو اكبر من الايام واخلد واسمى من ان ياتى عليه الفناء . وقد سمعت سيدى مصطفى مرارا يردد هذين البيتين فى حزن وحسرة ، فهو يرى فى الشابى طيفا من طيوف عبقر ، عبر مدى هذا الكون الواسع كالرؤيا التى لم تحوها حقبة ولم يضمها بلد .

زعيـم الشعـر :

وتراه في قصيدة اخرى ، وهي معارضته لدالية الحصرى القيرواني « يا ليل الصب متى غده » ، ينعـى باسف دولـة الشعر التى قامت بعد الشابى فيقول فى ذلك متحسرا :

قـدْ ماتَ زعيمُ الشعرِ فمن يـرعَاه ومن يترصّـــدُهُ
وخـَـلاَ المَيْـدَانُ فقَامتْ دو لةُ يا جـوع تتصيَّـدُهُ
اقـزامـًا قد ركبوا خشبـًا « والمرءُ وما يتَعَوّدُهُ »

حجـارة الفلتـاء :

وعبر الستينات ، قامت ضجة كبيرة حول مكانة الشابى فى تاريخ الشعر التونسى ، وجاء من ينكر عليه بعض القيم الخالدة . التى تفرد بها ، ودار الحديث بين الجالسين فـى حديقة المستشفى العسكرى عن هذه الضجة . ابان اقامة سيدى مصطفى فى ايامه الاخيرة هناك ، فكان جوابه رحمه الله : الا تعلمون ان الشابى خاطب هؤلاء قبل موته بقوله :

مـن جَاشَ بالْوَحْيِ المقَدّسِ قلبـهُ
كما خاطب جرير اعداءه لم يكترثْ بحـِجَارَةَ الفلتـاء
اذا اجتمعوا علي فَخلّ عنّي وعن بازٍ يصكُّ حبَاريَاتُ

وسوف يبقى الشابى كمد حساده . كما كان بالامس . ان الطبيعة ضنينة بامثاله ولن تجود بهم فى كل وقت .

الطـاهر الحـداد :

ومن الاصدقاء الذين التقى بهم وتحمس لدعوتهم ، محرر المراة التونسية ، والداعي لفك قيودها المرحوم الطاهر الحداد . وكان للصوت الذى تجاوب فى الشرق ونادى به قاسم امين صداه في تونس ، اذ سرعان ما تلقى دعوته فيها جماعة من الشبان المتحررين وعلى راسهم الطاهر الحداد وكما لاقى الشابى من يعارضه ويقف في وجهه وجد الحداد ايضا فئة من الرجعيين الذين يعملون على تقويض دعوته واشتدت هذه المعارضه عندما اصدر الحداد كتابه « امراتنا فى الشريعة والمجتمع » . فقد تعرض لموجة ساحقة من الانكار والجحود ، وكان من اشد المعارضين له شيوخ الزيتونة ، الذين تضايقوا من ارائه المتحررة ، وراوا فيها خروجا ومروقا عن الدين .

وفى تلك الاثناء اقيمت للحداد حفلة تكريم بمناسبة صدور كتابه فى « كزينو » البلفدير ، وكان من الداعين لها سيدى مصطفى ، الذى شارك يوم الحفلة بكلمة نثرية نوه فيها بدعوة الحداد ، وبقيمة الكتاب الذى اصدره ، وحاجة مجتمعنا الى امثاله فى تلك الفترة العصيبة من كفاحنا المرير . ولم يترك شاعرنا بعد ذلك فرصة الا ونوه فيها بدعوة الحداد ، سواء فى مقالاته الصحفية او فى قصائده ، كما نرى ذلك فى قصيدته فى « ذكرى ابن خلدون » التى انشدها بالخلدونية سنة 1932 بمناسبة مرور ستة قرون شمسية على ميلاده ، فهو يذكر فى هذه القصيدة الخلاف بين القدماء والسلفيين والمجددين ، فيقول فيها معرضا بهؤلاء الذين يتصدون لكل جديد :

لم تبَال بِحسادِيكَ وهمْ في
غيهم امْتَنوا ولمَّا يبَالوا

وتحمّلْتَ كيدَهم وتحملنا
ومن شيمةِ النّهى الاحتمال

وهذه الابيات ، وان كان النفس فيها يصدق على كل عهد يتشاكل فيه المقلدون والمتحررون ، الا اني اعتمدت الاشارة فيها على ما حدثني به هو نفسه بانه كان يعني بذلك المعارضين للطاهر الحداد في تلك الفترة . ويشير لما لاقاه من المتزمتين من عنت ومن عنف « قد تحملت كيدهم وتحملنا » . وقد جرى في هذه القصيدة على طريقته المعروفة في الذكريات والمراثي وهي طريقة استنطاق الموتى ، وادارة الحوار بينه وبين من يرثيه او يؤبنه .

محـــرر المـــراة :

وفي سنة 1939 عندما وقعت الحرب بين المحور والحلفاء . وظهرت في اثناء ذلك الاحتدام عنصرية « موسيليني » بادعائه ان تونس شاطيء ايطاليا . وكان التونسيون في ذلك الوقت لحما على وضم بين هؤلاء وهؤلاء ، وجاء الى تونس « دلادلي » ليعلن ان تونس لفرنسا . فما كان من زكية الفراتي الا ان كونت مظاهرة « بباجة » ، لانها كانت تعلن بسخط وطنية بلادها ، وتنادي بكذب الافتراءات المزعومة . وقد استقبل الوزير هذه المظاهرة بالسخط ، وسجن زكية الفراتي وصاحباتها . في هذه الظروف ، نظم سيدي مصطفى قصيدته « من الطاهر الحداد الى زكية الفراتي » . كتبها في صورة رسالة منه الى زكية الفراتي ابتداها بقوله :

شَنّوا عليّ الغارَةَ الشّعْواء وتربّصُوا بِي بكرةً ومساءَ
وجرَوْا يثيرُونَ الغبارَ لدعوتِي إفْكا ومَكْرًا سيّئا وهراءَ
وتبادلوا عنّي صُرَاخا منْكَرًا ملأَ الدّيَارَ سَخَافَةً وبذاءَ

وتعجّلوا قَتْلِي وكنتُ مهنّداً عضبا وابلغُ حِدّةً ومضاءَ
ان قالت سيروا بالنساءِ الى الضّيا وابغوا لهن شريعةً سمحاءَ

ففى هذه القصيدة بثت مجموعة من ارائه واراء الطاهر الحداد فى تحرير المراة ، وما ينشا عن جهلها من فساد النشء ، وبالتالى فساد الامة ، ويزاوج فيها بين التاريخ العربى القديم ، وتاريخ قرطاجنة ، وذلك عند تعرضه لقصة اسماء بنت ابى بكر ، حينما لاذ بها ابنها عبد الله بن الزبير ، متسائلا طالبا رايها بعد ما ضعف وتخلى عنه احبابه واصدقاؤه . فما كان منها الا ان حثته عن المثابرة والعزم ، فخرج وقاتل حتى قتل . ثم مرت به وهو مقتول فقالت كلمتها المشهورة « اما آن لهذا الفارس ان يترجل » فيقول سيدى مصطفى خريف فى قصيدته تلك مشيرا الى هذه الحادثة :

لله ذاكَ القلبُ. ماذا احملت آفاقه من همّةٍ قعساءَ
انّ التّي نشأت بنفسٍ حرّةٍ تلدُ النفوس كريمةً شمّاءَ

ثم يدعوها بيا بنت قرطاجنة . وبذلك يعمل جادا على اتباع مذهبه وهو بعث الذاتية التونسية ، واحياء التاريخ القومى القديم ، وما حوى من بطولات وامجاد . واذا كنا نفتخر بالعرب وتاريخهم ، فيجب ان لا ننسى تلك الحضارات التى ازدهرت بارض تونس فى القديم . وما حوت من امثلة البطولة وعناوين المجد الخالد . وكان يعمل بذلك فى نفس المحيط الذى رسمه لنفسه ، وسار عليه بقية حياته . وقد ذكر فى هذا الصدد قصة تضحية نساء قرطاج بشعورهن عند الحصار الطويل الذى ضربه الرومان على المدينة الباسلة فى نهاية الحرب البونيقية الثالثة ، وتضحية زوجة صدر بعل بنفسها وباولادها عندما غدر القائد وسلم نفسه للرومان ، فيقول فى قصيدة ابو قمر المرحوم سعيد ابو بكر :

بنتُ قرطا َ قبلهَا خلَّدَتْ ذكرَها العصُرْ
وكان اسطولُ قومِهـا يدفَعْ الغَاصِبَ الأشرْ
واستجابت لبوءة قلبهـا ظلّ يستعِرْ
فلنذهب هذي الحلَى واليواقيتِ والدّرَرْ
لتجدّ الشعورُ فالحسنُ حسنٌ بلا شَعَرَ

اهــواء موزعــة :

كنت دائما اسمع سيدى مصطفى يردد هذين البيتين وهما من الشعر القديم :

هوًى بتَهامَة وهوًى بنَجْد فابْتَلَتْنِي التَّهَائِمُ والنّجودُ
اهيمُ بذا واذْكرُ عهدَ هذا ولي ما بينَ ذَاكَ هوًى جديدُ

وكان شاعرنا من الذين توزعت اهواؤهم ، وتنوعت ميولهم فهو لا يقتصر على مجالس اهل الادب والشعراء ودعاة الاصلاح فى ذلك الوقت ، بل كان ينبع من صميمه حب خارق للحياة ، يدفعه الى التقلب فى مستوياتها على جميع صورها واشكالها . ففى تلك الفترة التى كان فيها متصلا بالشابى والحداد ، التقى بشخص اخر على نقيض هذين الشخصين هو على الدعاجى ، وكان تاثره به بالغ الاهمية فى حياته الغنية اذ صبغه بصبغة الفن وعرفه المجتمع على حقيقته . واندفعا معا فى اهوائهما ، فعاشا حياة كلها للفن . وقد كان التفرغ فى ذلك الوقت مفروضا عليهم ، حتى تكونت منهم جماعة سموا فى ما بعد بجماعة « تحت السور » فئة غريبة الاهواء مختلفة الميول ولكن الصعيد الذى اجتمعوا عليه كان واحدا . وقد رايت من يتحدث عن هذه الجماعة ويكتب عنهم فى الصحف ويغفل ذكر مصطفى خريف ، بينما كان من الاعضاء المواظبين على حضور تلك المجالس . وقد اجتمع فى عقد هذه الجماعة الشاعر ،

والفنان ، والكاتب ، والمصور . والممثل ، والممثلة ، وترابطت بينهم اواصر الصداقة التى لا يكدرها الحسد ، ولا يفسدها التباغظ ، وكان فى ذلك الوقت قد وفد الفنان بيرم التونسى الى تونس من حوالى سنة 1932 الى سنة 1934 ، وبدا بتحرير مقالاته ومواضيعه الصحفية بجريدة « الزمان » ، ثم اسس بعدها جريدة « الشباب » بمن انضم اليه من هذه النخبة ، فكان طريقته فى الصحافة والحياة تاثير خاص على الدوعاجى وسيدى مصطفى ، وكانت المواهب التى يتمتع بها الدعاجى متنوعة : فهو مصور « كاريكتور » ، وقصاص ، وزجال ينظم الاغانى والمقاطيع فى نقد المجتمع وعاداته وتقاليده ، مع وجود مميزات خاصة تميزه عن غيره من الشعراء والزجالين فى ذلك الوقت .

الدوعـــــاجـى :

وادب الدوعاجي شعبى ينبض من صميم البيئة التى يعيش فيها . فقد ولد فى عائلة بلدية قديمة ورث عنها جمال السمات ورقة العواطف والنعومة . وهذه العواطف هى التى كانت حائلا بينه وبين اتخاذ طريقه السوى فى الحياة اذ ان الحظ الذى اخذه من التعليم كان طفيفا . وعند ما ارادت والدته ان تعلمه صناعة ، لم يبق فيها الا مدة قصيرة . وعند ما لم يجد فيها ما يرضى رغباته عاد الى الصدر الارحب ، صدر الحياة التى سرعان ما جذبته الى اضوائها وظلالها وصار بعد ذلك يكيف حياته على هواه ، فاندفع يطالع ويقرا الكتب التى توافق ميوله ، ومع ملاحظاته فى محيطه وتجاربه ، فى روحاته وجياآته وقعوده فى مقاهى المدينة صباح مساء ، تولدت فيه حاسة الفنان التى هى مزيج من الرفض والقبول للواقع ، من الانسياب مع التيار ومن التحرر والنوم بعد ما يكرع من دنها ويرتوى ، وكان وجود بيرم بتونس من العوامل الاساسية التى ابرزت هذا الفنان ،

فقد كان يحرر معه فى جريدة « الزمان » ، وعنه تعلم الاساليب الصحفية ، وحب الشعر ، ونظم الزجل الاجتماعى . ثم اسس الدوعاجى بعد جريدة « السرور » سنة 1936 ذات الطابع الذى يشبه جريدة « الشباب » ، وكان يحررها معه جماعة منهم : العبيــدى ، والعريبى ، والغرائرى ، وسيــدى مصطفى خريف الذى كان يكتب فى الجريدة باب بعنوان « مراجعات صحفى » ، ويوقع تحريره « بفلقة صحفى » . ومع ان هذه الصحيفة لم تعش طويلا ، فقد ابقت اثرها فى الصحافة الهزلية التونسية مثل « الوطن » والسردوك وحتى « الزهور » و « الستار » واخيرا.

تحــــت الصــور :

وكانت هذه الجماعة هيئة تحويــر متنقلــة فى مقــاهى المدينة ، معتنقة مذهب الا مبالاة . والذى اعرفه خاصة عن الدعاجى وسيدى مصطفى ان ايامهما كانت سديما من النشوة والغفلة والغفوة الحالمة ، تراهما فى الصباح فى احدى مقاهى المدينة ، وخاصة فى مقهى « المرابط » التى كان يحلو لهما فيها ان يستمعا الى اغانى عبد الحى حلمى ، وسيدى الصفتى ، وادوار الشيخ سيد درويش ، وفى المساء تراهما بباب سويقة بمقهى (تحت السور) ، وفى اخر الليل بدكاكين زنقة الكبدة . وكانت هذه الحياة الطبيعية ، والتفرغ البوهيمى من الدواعى التى بلورت فن هذين الاديبين . ولعل المطلع على حياتهما يعرف ان اكبر مدرسة تلقيا فيها التعلم هى مدرسة الحياة ، فالدوعاجى كان يرى نفسه « عرضحالجى » الناس تزرع وهو يحصد ، والناس يلعبون وهو يرشم ، واخيرا الحياة كلها مسرح لا يمثل على ركحه ، ولكنــه يتفرج من اللــوج . وهذا الطــراز الشديــد الحساسيــة والملاحظــة نــراه اكثــر مــا نراه . مع انسان تونس القديمة الذى يعيش فى الازقة الضيقة والحوارى المنعزلة ، يرسم صورته ويبدع فى وضع الاطارات

اللازمة لها . ويلتقي مع سيدى مصطفى الذى اعطى لنفسه عنوان « نحن نمشى » فى التسكع المستمر الذى يتحول الى فن وتصوير للحياة من اكبر ابوابها ، وهو الشارع . فسيدى مصطفى انسان « كثير » ، وهذا تعبيره ، تراه فى الكتبية ، وفى مقاهى باب منارة ، وباب سويقه ، ومقاهى القصبة ، ومقاهى باب بحر ، فى اواخر حياته وفى كل مكان كنت تنظر حوله اشكالا متعددة من الناس من العامل الى التلميذ الى الموظف يتحدث مع هذا ، ويكلم هذا ، ويناقش ذلك فى لغة بلدية نفت عنها تطرف نطق ابناء العاصمة وتقعر ابناء «الجريد» فجاءت لغته صافية لا تشوبها شائبة . والتقاؤه بالدوعاجى كان ذا بال فى حياته ، اذ طبعه بطابع الفن والرقة . وهو فى كل مرة كان يحدثنى عنه حديث المعجب الذى يقدس مع يعجب به رغم انهما ندان .

مـــوت الدوعـــاجى

وفى ماى سنة 1949 ، وكنت انذاك بالعاصمة ملازما لسيدى مصطفى فكان كثيرا ما يتحدث عنه وعن مرضه ويزوره بمستشفى شارل نيكول . وفى يوم من ايام هذا الشهر اعلمنى ان الدعاجى قد توفى ، فصحبنى معه الى جنازته بالناحية الغربية من الجلاز حيث تم دفنه . وكانت جنازة لم ار اكثر منها تواضعا . اذ لم يحضرها سوى نفر قليل من الاقارب والاصحاب اذكر من بينهم الاستاذ الهادى العبيدى ، وبذلك واروه التراب فلم يشحب من اجله خد ، ولم تهرق دموع . وهكذا كانت حياة الفنان فى تونس فى ذلك الوقت يعيش غريبا ويموت غريبا .

مكتبـــة الدوعاجـــى :

وفى اواسط الستينات قرات مقالا فى جريدة العمل

لصحفية هاوية تحدثت فيه عن « مكتبة الدعاجي » التي اوصى بتسليمها الى صديقه مصطفى خريف . وقد تعجبت من هذا الخبر اشد العجب ، لما اعرفه عن مخلفات الدوعاجي وذلك انه في خريف 1949 استدعى قريب من اقارب الدوعاجي سيدى مصطفى الى البيت الذى خلف نهج الباشا وهو البيت الذى يقع بنهج المقطع .

وكان بيت الدعاجى الذى يقيم فيه مع امه فصحبنى سيدى مصطفى معه . واذكر انه كان فى وقت الزوال . فجاء هذا القريب بمجموعة من الاوراق والصور ليس بينها كتاب مخطوط او مطبوع وانما هى شتات من الصور المتفرقة والاوراق المبعثرة . ليس فيها شيء يذكر من انتاج الدوعاجي ، وكل ما رايته فى تلك الاوراق رواية بيرم التونسى « ليلة من الف ليلة » مخطوطة بخط بيرم وبعض الازجال . فاخذ منها سيدى مصطفى ما ملا ظرفا كبيرا ورواية بيرم وبعض ازجاله . ثم انصرفنا ولا شى غير ذلك .

الشـــيخ الكبـــادي :

كانت علاقة سيدى مصطفى بالشيخ العربى الكبادى علاقة اعجاب لا علاقة تتلمذ ، رغم انه تلقى عنه الدروس بجامع الزيتونة ، اذ حضر عليه وهو يدرس كتاب « الكامل » للمبرد ، وكانت اللباقة التى يتمتع بها الشيخ الكبادى ، والكياسة ، ورقة الحاشية من الامور التى تجلب الناس الى مجالسه . زيادة على ما يتمتع به من حافظة قوية ورواية للاخبار والاشعار النادرة ، فكان سيدى مصطفى لا يفارق مجالسه الخاصة . وكان الشيخ يجلس بمقهى الجنينة بباب منارة ، ثم انتقل الى مقهى دربوز الحديد قرب منزله ، فكنت تراه يحيى كان من يمر بمجلسه . واذا ما قصد احد تلقاه بالقبول والعناق ، ثم يجلس ويسراه ممسكة بعصاه ذات المقبض الفضى ، ويمناه بمبسم

رقيق من الفضة ايضا معلق بطرفه سجارة ، تـراه يجـذب الانفاس منها الحين بعد الحين . فكانت هذه المجالس حدائق مونقة حافلة بالجليل والطريف ينتقل الشيخ بحديثه من الادب الاندلسى الى الادب المشرقى ، ومن ابن حمديس الى ابن سكرة الهاشمى . وكانت له حافظة غريبة تحوى دواوين برمتها ، وتستظهر اشعار حقبة كاملـة ، خصوصـا اشعـار العصـر العباسى الثانى . وبالخصوص شعراء اليتيمة برواية نادرة يوشحها بتعليقات لا مثيل لها فى الدقة .

وكان سيدى مصطفى مشغوفا بالادب القديم . وقد زاده شغفا ، ما كان يسمعه فى هذه المجالس من بدائع الاوزان ، وغرائب القوافى ، التى بقى اثرها عالقا بنفسه الى اخر ايام حياته .

ذاكـرة خـارقة :

وكان مما حدثنى به سيدى مصطفى فى حـوالى سنـة 1941 ، انه اجتمع مع الشيخ الكبادى فى وقت متاخر بعـد الزوال ، فى المقهى الملاصق لبيته ـ وهو مكان المكتبة الشرقية الان ـ وكانا يستمعان الى اذاعة مشهورة فى ذلك الوقت ، وهى اذاعة الشرق الادنى ، فصادف ان استمعا الى قصيدة فى مدح الرسول الكريم ، تغنيها مطربة مشهورة فى ذلك الوقت مطلعها :

يانـبي الله يا سنـدى   يارسـول الواحـد الاحـد

فحفظها الشيخ الكبادى من لدن سماعه لها فى المرة الاولى . اما سيدى مصطفى فقد بقى وزن هذه القصيدة بالذات

يتغلغل فى مخيلته ، حتى عارضها ، وكان لهذه العارضة قصد اوجزها فى هذا الحديث الذى سمعته من شاعرنا شفويا .

الكتـــاب الذهبـــى :

ففى سنة 1941 ، شكلت الحماية بتونس لجنة معونـة الشتاء ، لجمع المؤن والملابس ، لمن شردتهم الهزيمة بفرنسا اثناء الحرب العالمية الثانية . فما كان من مدير الاذاعة بتونس فى ذلك الوقت ، الا ان اعلن عن مشروع سماه مشروع الكتاب الذهبى . وطلب من جماعة من الشعراء بتونس ان يساهم كل واحد منهم بقصيدة تتحدث عن فضائع الحرب وتمدح المقيم العام . فاستجاب له عدد من الشعراء منهم من هو على قيد الحياة ، ومنهم من توفى وكان من الذين طلب منهم هذا الامر سيدى مصطفى . وهو ينوء فى ذلك الوقت تحت اعباء البطالة والفقر فاغواه مدير الاذاعة ، باحاديث اسبوعية ان هو استجاب لتلك الدعوة ، وكتب قصيدة فى ذلك ورغم ما كان يقاسيه من محن ويعانيه من شظف الا انه رفض ان يدنس اسمه وشعره بمدح المستعمر .

لجنـــة الاغـــاثة :

وبعد هذه الفترة بمدة اسست الخيرية التونسية « لجنة الاغاثة الخيرية » ، وافتتح اكتتابها المرحوم الشيخ الفاضل ابن عاشور بمحاضرة عن حاتم الطائى ، وفى نفس حفلة الافتتاح قرا سيدى مصطفى قصيدته التى عارض بها القصيدة النبوية . وتحدث فيها عن المنكوبين والجياع من التونسيين . وعما يقاسونه من الجوع والبرد فى الشتاء القارس ومطلع القصيدة هو :

حيي تلك النخبة النجبا   واسع في تاييدهم خببا

ولم يترك مصطفى خريف هذه المناسبة تمر بـدون ان يذكر فى قصيدته الداعى الى مشروع الكتاب الذهبى ويندد بـه قائـلا :

لا كغمـربـات ببطـره   حبـه الاموال والـرتبا
اضرَم الشيطـانُ بطنتَـه   فهـو عبدُ للّذي اكتسبَا
لـم يزلْ في اسرِ شهـوته   حيثمـا طَافـتْ به ذَهَبَا
كلمـا لاحتْ لـهُ صـورٌ   مـن ظلال ٍ باطلٍ وَثَبَـا
غلفـت احساسَـه حجـبٌ   من فنونِ الغيِ فاحتجبَـا
هـلْ يرَى يـا وَيْحَـهُ   زمرَ الفقر في اوطانه غرَبَا

ثم يصور بعد ذلك حال الجائعين فى ذلك الوقت . وما وما يعانونه من فاقة واملاق وما يقاسونه من الشدة فى شتاء شديد البرودة :

مـن اخٍ عـارِ المناكبِ مـا   ينفكّ تحت القـرّ مـضْطَرِبَا
في ظلامٍ لـم يجـدْ سَكَنَا   لا ولاَ نَارًا ولا حَطَبَـا
جسمـه المنهـوكُ ينهشـه   مخلبٌ في قلبه انْتَشَبَـا
تلْتـوِي امعـاؤُه ألَمـًا   تلتـظي احشـاؤُه سَغَبَـا
صارخـًا تصطكّ اعظمـه   والردَى من حوْله اقْتَرَبَـا

ثم يتمنى بعد ذلك عرضا ، ومالا يقضى به حق الفقراء

من اهله ووطنه ، غير انه يعتذر فى اخر الامر بان الله صاغه من طينة الادباء الذين لم يهبهم الله النشب والمال . وفى ابياته هذه صورة اليمة لما كان يقاسيه الاديب فى ذلك الوقت :

غيــر ان الله ممتَحِنـًا صاغَنِي من طينةِ الأدَبا
ما لَنَا فيهَا سِوَى خرق تَحْتَوِي الاشعارَ والخطَبَا

اللقـــاء الاخيـــر :

وكان آخر عهود اللقاء بالشيخ الكبادى فى داره وذلك سنة 1959 . وقد ذهبنا لزيارته انا وسيدى مصطفى ، فوجدناه طريح الفراش ، يعانى اوصاب المرض وآلامه . وكان مجلسا خيمت عليه ظلال الموت . وجل الاحاديث التى دارت فيه تمجد الماضى ، وتتحدث عن ايام الفتوة والشباب الريان ، واستطرد الشيخ الكبادى فى ذكر المراثى وذم الدهر ، وكان مما علق بذهنى فى ذلك المجلس هذان البيتان من مرثية ابو الحسن التهامى لابنه ، انشدهما الشيخ الكبادى بشجو وحزن واسى :

ابكيهِ ثم اقولُ معتذرًا له وفقتَ حيث تركت الام دار
جاورتُ اعدائِي وجاورَ رَبَّهُ شتانَ بين جوارِه وجوارِي

وكانت تلك الجلسة آخر عهد اللقاء بالشيخ الكبادى ، حتى واراه التراب فى شهر فيفرى سنة 1961

معـارضـــات :

وعلى ذكر المعارضات . كان سيدى مصطفى يرى فى

المعارضات نوعا من التحدى والدعوى فى اللباس القديم ثوبا جديدا ، وبعثه بقصد ضرب المثل للتحدى . وهى ليست مجرد محاكات القصيدة في وزنها وقافيتها . ولهذا نراه فى معارضاته بعيدا كل البعد عن الاصل ، وكان من اقدم معارضاته قصيدة كتبها بمناسبة حفل رياضى اقامته الشبيبة الرياضية الزيتونية ، وذلك حوالى سنة 1933 ومطلعها :

اعِدّوا واستعِدّوا فما من ذَاكَ بُدّْ
أقيموا الأسَّ وابنوا عراصًا لا تُهَدّْ
وسوّوها جسوما تريدُ فَلاَ تُرَدّْ

ووزن هذه القصيدة غريب ونادر فى الشعر العربى ، وقد حدثنى عن قصة معارضته هذه . وذلك ان عمه الشيخ محمد الكبير التابعى ، كان يردد على مسامع ابناء الاسرة فى شهر رمضان الكريم هذين البيتين من الشعر وهما :

فطورُ التمرِ سنَّه رسولُ اللهِ سَنَّه
ينالُ الاجرَ عبدٌ يحلي منه سِنَّه

فعلق هذان البيتان بذهنه منذ صغره . وصحباه فى كبره ، حتى عارضهما بقصيدته السابقة ، والتى اعاد بناءها عندما نادى الرئيس الحبيب بورقيبة بوجوب تنشيط الرياضة وزادها حتى اصبحت طويلة جدا ، ونشرت كاملة بمجلة « الاذاعة » .

ومن القصائد التى عارضها قصيدة اليتيمة المعروفة بالدعدية ، والتى مطلعها :

هل بالطلولِ لسائلٍ رَدّ   امْ هَلْ لهَا بتكلمٍ عهدْ

وهى قصيدة طويلة ، حسنة المعنى ، جميلة المبنى ، اعتنى بها الشعراء قديما وحديثا ، واكثروا من معارضتها . وكان لمعارضة سيدى مصطفى لها قصة حدثنى بها ، وذلك ان ادارة معهد « ليسى كارنو » منعت تلاميذها العرب سنة 1947 من لبس الشاشية الحمراء ، شعار التونسى الدستورى فى الوقت فوقعت معارضة من طرف التلاميذ ، وامتنع بعضهم من نزعها فكتب سيدى مصطفى هذه المعارضة التى عنوانها « البعث » ، والقاها بمعهد البحوث الاسلامية بالخلدونية . وقد وصف فيها الشاعر هذا الحادث ، وهتف بكل شىء احمر . فهو يتصور ذلك اللباس قزعا قانية من الجمر تارة ، وبنودا حمراء تارة اخرى ، تخفق فى الفضاء فى كل ناحية يظهر منها بند . ومطلع هذه القصيدة هو :

اهلاً بنورِ الفجرِ اذ يبْدُو   حمدَ السَّرى وتحقَّقَ القصدُ

وتكتسى هذه القصيدة لونا من الحمرة عجيبا استحال الى لون الدم ، والنار ، والشفق فتراه يصور فجر بلاده بقوله :

قد وشَّحَتْ افاقَهُ قزعٌ   كالجمْرِ قانيةٌ لها وقْدُ
وكأنمَا اضطرَمَتْ بطلعتِه   نيرانُ عزمٍ ما لَهَا خَمْدُ
او ذَاكَ للشَّرَفِ الرفيعِ دمٌ   ليصانَ بينَ نجيعه المجْدُ
او ذى بنودٌ في الفضا خفقتْ   في كل ناحيةٍ بدا بنـــدُ
في جحفَلٍ للحقِ منتصرٍ   يعلو القَتَام بهِ ويرْبَدّ

ويدعو فى هذه القصيدة للبذل والتضحية بالدم ، والى مزاحمة المستعمر وكفاحه ، والخروج من قوقعة الصمت قائلا :

ولتدو في الاكوان صرختنا   ولينكسر في الساعد القيد
ولنفد بالارواح عزتنا   ان لم يكن من بذلها بد
فلكل حي في الدنى اجل   ولكل ضيم في الورى حد

وكان الشعراء فى ذلك الوقت ، يلمحون تلميحا لطرق الخلاص من المستعمر ، ولا يصرحون بالاصطدام معه ، فخزندار مثلا كان يقول :

ان التي اغتصبت بلادك قصدها استغلالها ومرادك استقلال
فكلاكما ابدا على طرفي نقيض والوفاق محال

فهذا النطق تعبير عما يجيش فى صدور الناس فى ذلك الوقت من مقت وكراهية للمستعمر

يا ليل الصب :

ومن القصائد التى عارضها وانتشرت بين الادباء ، معارضته لدالية الحصرى المشهورة « يا ليل الصب » « متى غده » ، وقد بدا كتابتها فى الجريد ، ولذلك جاء الجزء الاول منها وصفا ممتعا رائعا للواحة والنخيل ، وانفرد فيها بشيء وهو وصف مجلس من مجالس الخمر التقليدية بواحة الجريد . وقد اخذ هذا الجزء الموسيقار عبد العزيز محمد ، ولحنه وغنت به المطربة لوردكاش التى غنت له قبل ذلك قصيدة « حورية الموج » ومطلع هذه المعارضة :

العهدَ هلمّ نجدّدُه ... فالدهرُ قد انبسطتْ يدُه
وتغرّدَ فوقَ النخلِ يمامٌ ... كم يشجيكَ تغرّدُه
والبلبلُ هزَّ الغصنَ وغنّى ... لحنَ الحبِ يردّدُه
يتلو تسبيحَ صبابتِه ... فيرتّلُه ويجوّدُه

ولم استمع لهذه القطعة تذاع ، سوى فى مناسبتها الاولى عند ما غنتها السيدة لوردكاش بالمسرح البلدى سنة 1951 اثناء تمثيلها الابريت « ليلة من الف ليلة » لبيرم التونسى . وكانما كتب على هذه الاشياء الفريدة ان تموت بموت اصحابها ، ويحرم منها هواة الفن الرفيع ، وتقبر فى ارشيف الاذاعة .

اما الجزء الثانى من هذه المعارضة ، فقد كتبه الشاعر بتونس وكان ما يزال متاثرا بموت زميله ورفيقه ابى القاسم الشابى ، فكان حديثه كله فى اثناءها عن الشعر وزوال دولته بعد موت الشابى . وكيف خلا الميدان فقام كل شاعر يدعى بانه الشاعر المجلى :

قد مات زعيمُ الشعرِ فمنْ ... يرعاهُ ومن يترصّدُه
وخلاَ الميدانُ فقامتْ دولةُ ... يا جوج تتصيّدُه
أقزاما قد ركبوا خشبًا ... والمرءُ وما يتعوّدُه

حامل الهوى :

ومن معارضته المشهورة ايضا ، معارضته لقصيدة ابن

نواس « حامل الهوى تعب » وقد كتبها فى تكريم المطربة لوردكاش عندما زارت تونس سنة 1949 ومطلعها :

هـاجَ شـوقـه الطـربُ ... والهـوى هو السَّبَـبُ

وقد جاء فيها وصف شيق ، وتحدث عن الشرق حديث المعجب حيث ان لور لبنانية المولد مصرية النشاة فقال فى ذلك :

جنـةٌ شـامكـم ... ارضُ مصركمْ ذهبُ
والصَبَا تهبُّ مـن ... النيلِ نفحهَا عَجَبُ
والنسيمُ مـن يـردى ... يشتفِـي بـه الوصف
حبذا الـربـوعُ ومـن ... للـربوعِ ينتسِـبُ

وقد كان وقع خلاف فى ذلك الوقت بين الموسيقار فاضل الشوا وبين المطربة الكبيرة فقال فى ذلك :

من عصى امـارتـهـا ... فهـو قلبـه خشـب

وعلى الرغم ما فى هذه المعارضات من **محاكاة مملة** ، وافلاس فى العمل الشعرى ، وضيق فى ميدان الابداع والخلق ، الا ان سيدى مصطفى اعطى لكل معارضة طابعا خاصا بها اضفى عليها الشيء الكثير من ذوقه المرهف ، واحساسه الفنان ، وعلى كل فهى كما .

التـراث الشعبـى :

كانت الثقافة العربية فى الثلاثينيات والاربعينيات ،

تكاد تكون منعدمة فى اوساط الشعب التونسى ، سوى ما كانت تتشبث به ثلة من ابناء الزيتونة . من الذين تشربوا لغة القرآن ، وتلقوا مبادىء الفصاحة فى حلقات الجامع المعمور . او ما ند من ابناء المعهد الصادقى . من افراد شبوا على حب لغتهم ، واتطلعوا الى تراثها ينقبون عن كنوزه ، ويفتشون عن مخبآته ، ولذلك انعدمت الثقافة القومية . وضاع التراث التونسى فى زوايا المهملات ، ولعل من المناسبات الفريدة التى وقعت اخيرا هو التفات الحكومة الى التراث الشعبى . وحث الرئيس بورقيبة رجال الفكر ووسائل الدعاية فى البلاد على الالتفات الى لغة الشعب ، والبحث عما فيها من روائع وعمق ، وصدق فى التعبير والى ما فى شعرها من مواقف صادقة تخلد مجد البلاد واعمال النبلاء من رجالها . ورب واقعة مر بها التاريخ مرور العابر جاء الادب الشعبى فخلدها وابقاها على كر الليالى واختلاف الاجيال .

رفـــع الكلفـــة :

وكان سيدى مصطفى ، رحمه الله ، قال لى بالحرف الواحد « كنت احاول ان اجعل الناس يتحدثون معى وان ارفع الكلفة بينى وبينهم » لذلك عمل على التعلق بكل ما يقع تحت بصره . وما يصل اليه سمعه من كلام عامة الناس ، وكما كان يتمثل بالجملة الشعبية المعبرة فيصيب المرمى ، ويقع كلامه فى القلب احلى موقع ، مما يجعل الانسان يعجب لما فى هذه اللغة من سلاسة وقــوة فى التعبير وفى ايامه الاخيرة مــن صيف 1966 وهو طريح الفراش بالمستشفى العسكرى بالعمران ، وقد انفرط الاصحاب واستوحش البيت من الاهل ، زرته ــ وكنت اذهب اليه يوميا ــ عند اقامتى فى الصيف بتونس ، فكان من جملة ما يخاطبنى به عند السؤال عن حاله بعد آهة طويلة :

الـذّهْــنُ بوصَــهْ والخـــوَاطــرْ خــوصَــهْ
عِينِـي حَـرُوصَـــهْ لِمَـــنْ يَجِـي يِرَاعِينِـي

والبوصة هى وصلة الصوف بعد مشطها وهو يكنى بذلك عن شيب فكره عن طريق الاستعارة .

سبب وجيه : وقد كنت سالته مرة عن سبب تعلقه بالادب الشعبى ، فكان مما قاله لى بالحرف الواحد : اضطرنى المجتمع الى ان اتكلم فى الادب العامى ، لانى لم اجد من يسمع الادب الفصيح . » ولكن ليس هذا وحده هو السبب ، وان كان فى حقيقة الامر وجيها وقويا ، لان هناك اسبابا اخرى اعمق اتصالا بروحه ، واشد وثوقا بنشاته . منها اتصاله بكثير من اساطين الادب الشعبى فى بلدته نفطة . واخذه عنهم ما ينظمونه فى المناسبات والاعراس وكذلك نبوغ اختيه « مباركة و الزهرة » فى هذا الفن ، وتشربه بكل ما يسمعه منهما من شعر شعبى ، وقد كان لهذين الاختين تباين فى طريقة النظم . فاحداهما وهى « مباركة » كانت تعتنى بالصنعة فى شعرها وتختار المواضيع الاجتماعية ، وتنظم فى شعر المناسبات لذلك جاء شعرها يغلب عليه العقل والصنعة .

اما الزهرة فقد كانت تصدر عن روح شاعرة ، وتغرف من طبع صاف ، ومن محفوظاتى لها هذه القطعة فى وصــف القهوة « عروبى »

مَحْبُوبَتِي هَبْلِتْنِــي وْحَزَارْهَا شَاكْ فِيَّــا
وِعْيُونَهَا ذَبْلِتْنِـــي وَجْبِينْ مِثْل ِ الثّرَيّــا
بَعْدَ الهنَا شَغْشِبِتْنِـي والدّارْ بِعْدِتْ عَلَيَّــا

ملـــزومـــــة :

يَـا حــرَا خـفـــــي بِـتْـمَـاقِـلك وِحْرَامْ ايْهـفِي
بَـرَادْ مْـصَـفِّـــي ابزَهْرة مَـــاذَا نَـهْـــوَاهْ

ومن اشعارها فى التغنى باخيها الهادى رحمه الله

يَـا نَـاسْ مَـا تْلُومـونِـي فِـي تِـيهـتِـي خَلّـونِـي
قَـالـوا عَلَـيْ تْطـلّـي قـلَـتْ والله مَـانْـولّـي
حـتَّـانْ نَـبْـرِدْ غلّـي بِـالـزِّيـنْ نَـمْـلاَ عْـيـونِـي
يَـا خَـدُودْ وردِ الظّلّـي يـَا ذَهَـب يَـا دْبـيـونِـي

هــدى الــزرقــى :

وقد كانت الزهرة تلميذة حدى الزرقى . تلك الشاعرة التى رسمت باصابعها فى صفحة حياة سيدى مصطفى خطا طويلا ، ولا باس من التعرض لها كما وعدت بذلك فى اول هذا الكتاب ، وقد كانت تسمى حدى « عايقه » لما اشتهرت به من اعمال الفتوة والمجون وما سار لها من ذكر فى مجالس القرية . وفى اعراسهـا اذ كانت كلما حضرت عرسـا الا واوقفت الناس على قدم وساق ، وجعلت الفرحة تتضاعف بما تصبغه عليه من بهجة وانشراح . ومن المفارقات العجيبة انها كانت تلبس ملابس الرجال وتصر على النداء عليها بـ «سيد احمد». وعندما ترجع الضمير على نفسها فانها ترجعه بصيغة المذكر فتقـول مثـلا :

قَالْهُـمْ هَيْهَـاتَـهْ مَا نَزْهَاشِ دُونَ مَا نَشْبحْ ذَاتَه

وهى تعنى بذلك نفسها وتقول :

جَيَّابْ رِتَّابْ قَوْلَهْ يِنْصَّهْ   عَلِيكُمْ يْقصَّــــــه
كَمَا سِلْسِ لاَقِي عَمَلِ وَلْدِ سِلْسَهْ

وهى فى كل ذلك تصدر عن قريحة فياضة ، وذهن وقاد . ولذلك اختلفت مراميها وتنوعت اغراضها بحسب الطبع الذى جبلت عليه ، والميول التى تتقاذفها . وقد كانت هذه الميول متنوعة وحادة اشربت طبيعة صحراء الجنوب وحرها اللافح ، ولذلك نرى « حدى » متهتكة تارة تعشق فى استهتار وتغنى باسم محبوبها فى كل مجلس كما فى قولها :

سِيد كَامِلْ الرّقبة نِظِيف بْلاَجَــــــه
تَمْ الضِيَافَةْ وارْتَحَــلْ الْيــــــوم
خَلَفْ قلوبْ الهايمةَ تِتْــلاَجَــــه
وِشْ حَالْــهمْ سَافِرْ طِبِيبْ الْقــوم
أنـا مِثْلهمْ جرْحِي صِعِيبْ عْـلاَجَهْ
لَكِنْ سَاكِنْ فِي الحَشَا مَكْتُــوم

وتارة اخرى متصوفة متبتلة ، تتعلق بالاولياء والصالحين وتنحت من حرارة عاطفتها اهازيج غاية فى الروعة ، ترتفع الى اعلى مستوى الكلام العريق الذى ينظمه المحبون فى احبابهم واوليائهم ، كما فى هذه القطعة التى تمدح بها سيدى احمد « معاد » فتراها تقول :

شِكْيتْلِكْ بالصّايِرْ   عتْبوا عنّي يا احْمِدْ بالدّاير
لاَ خصْلَهْ فِيَّا
مَكْتوبْ لِي وَقْدايِرْ   لَمْ يزِلْ لِيعَ الجبِينْ سْطايِرْ
مَرْسومْ علَيَّا
حَوّصْتها بِالدّايِرْ   شَرْق وغَرْبْ جْبالْها وبحايِرْ
وفْجوجْ خلِيَّهْ
لامْ تجِيني سَايِرْ   يا طالْع القَمَرْ المنيرْ الدّايِرْ
يا باهِي الضّيَّهْ

اما فى الأشياء الجدية والطرق المدروسة للشعر الشعبى، فهى تجارى الفحول فى نظامها ، بل تبزهم فيما تخترع من اغراض ، ما تفتق من طرف للقول هى جد عسيرة بالنسبة لغيرها كما فى هذا « البرق » الذى سوف نقطف منه قطعة فى وصف الاسد :

زدْمْ زرْمِ صيدْ زَهّارْ   فِي غيبْ عرْعَارْ
مَحْبُوسْ حاضِبْ على صْغارِ حاطْ لبْتَهْ عَلَى زنُودَهْ
عِنِيهْ تلْهِبْ وتْحْمارْ   حَرْبَاتْ من نَارْ
قارِحْ شْرَخْ نَابَهْ صْفارْ   زينْ الشّلاَغِمْ عرُوداه
عرِيضْ الصّدْرْ كَفْ واظفارْ   سْكاكِينْ جزّارْ
كُلْ صُبعْ يجْبدْ بمنيارْ   يقْطَعْ حجَارْ الجمُودَه

حَاكِمْ حَتى ضِيقْ وَاوْعَارْ   قَطَّـــاعْ الخَطَـــارْ
يِسْبِي الفَرَاسِين لِلْغَـــارْ   بِـدَمْ السِبَايَا وْ رُودَهْ

فانت ترى ان هذا الوصف قل نظيره في الشعر ، ولم نقع حتى الآن على وصف يشبهه حتى في الادب العربي القديم. فانت تقرا اما في اخبار ابي زبيد الاسدى ، الذى اشتهر بوصف الاسد في صدر الاسلام ، فلا تجد نفس الدقة ونفس الجو الذى تدخلك فيه حدى . وذلك لان ابا زبيد لا ياخذ من الاوصاف الا التى فيها معنى البطش والقسوة والخوف ، زيادة على ما يستعمله من الفاظ غريبة ، تمنع القارىء من التذوق الكامل للاثر الفنى شعرا او نثرا . فالرعب ليس هو الناحية الوحيدة في وصف جوانب الاسد . بينما حدى تمتعك بوصف الاسد في غابه وهو جاثم وصغاره حوله . صورة فيها الدقة والنظر المجرد ، والاعجاب الذى لا يبدو مباشرا وان كنا نلمسه من خلال القطعة . التى هى من جملة اغراض البرق الطويل الذى ضمنته اشتاتا اخرى في وصف الطبيعة في الصحراء . ولعل من المفارقات العجيبة ، التقاء حدى الزرقى بعلي الدوعاجي وذلك وذلك ببلدة نفطة سنة 1937 م . ومجالسته لها وسماعه للكثير من شعرها . وقد كانت ترتاد مجالس الرجال ، وتفعل ما يفعلون من شرب وكيوف . ويعاملونها معاملة الند للند لما كانت تتمتع به من شخصية فذة متحكمة ، وترتدى ملابس الرجال : «بلوزة» تونسى بيضا ، وسروالا عربى بالتكة ، وتشمل بشملة على على طريقة سكان الصحراء من اهل الجزائر . وتربط راسها بالشاش الابيض في اناقة بارعة . وقد ترك الدوعاجى لنا وصفا لها نجده في قصته « احلام حدى » ، وقد افتتن القصاص التونسى بها ، وسمع منها « الروشن » الذى نظمته في الشمعة التى وصفتها في ليلة من ليالى سفرها ، عندما اوقدتها

فى بيت من الشعر ، وهى تقطع الصحراء فى رفقة لها من جنوب تونس الى جنوب الجزائر ، فاخذت تعنفها وتلومها على ضياعها فى ذلك المكان الخالى :

بِاللّهِ وشْ زَهَاكْ قُولِيَ يَا شمْعَة
رَانِي عَنْ صَقْصِيك واعْطِينِي الأخْبَارْ
يَا خِي بِيك كَفَاخْ وْهبَال وَطَعْعَه
وزِهِيتِي فِي غيْر مَحَلك عِيبْ وعَارْ

وهى ترى ان الشمعة اشرف من ان توقد فى صحراء خالية يقتلها الظلام والفراغ ، واتملا جوانبها الوحشة . ولكن ما حيلة الشمعة اذا لم تجد المكان الذى يناسبها ، فتراها تخاطب الشاعرة قائلة :

مَاذَا بيّا على العَلالِي والمَنْعَه
وُتَفْسِيح تْجِيب لِي نِسْمَةْ البْحَارْ
وبِيبَانْ مِنْ عَنَابْ غَايَةْ فِي الصَّنْعَة
وَقَرْ مَسُودْ الخَانْ مِنْ تَقْنِ التّجَارْ
كِيفْ يِجُو سَعْفَايْ وْنَعُودْ سَبْعَه
والقَرْسُونَهْ شَاطْرَهْ فِي ضَرْبِ الطَّارْ
والذّهَبْ اللِّي مْقَطِرْ بِالدَمْعَه
لِيلْ اللِّيلْ تَنْزْعَه مَلْبُوسْ نَهَارْ

وهذا لا يكون الا بشاطىء من الشواطىء الشمالية ، تلك التى تحلم بها الصحراء ، وتشتاق الى ريا هوائها الندى البارد الذى يطفىء اوام العطاشى الصابرين .

وقد استلهم الدوعاجى قصة رائعة من « شمعة حدى » التى حولها نثرا ونشرها بمجلة المباحث بعد رجوعه من نفطة . ولكن الشاعرة الجنوبية تبقى مجهولة كمجاهل الارض التى عاشت فيها ، فلا يسمع بها انسان ، ولا يرفع سجون النسيان عليها احد .

واذكر اخر مرة رايتها فيها حوالى سنة 1948 ، بحى السيدة المنوبية . فقد زرتها انا وسيدى مصطفى فى ذلك الحين ، فوجدناها قابعة فى كوخ صغير ، وحولها ثلة من الصبيان الصغار تعلمهم سور القرآن الكريم « بالمله » ، فقامت لنا وسلمت علينا كما يسلم الرجل على الرجال . ودار الحديث دوائر وانشعبت طرقه الى الشعر ، فاسمعتنا قطعة كتبتها من وحى الاحداث الجارية فى ذلك الوقت ، وهى نفى المرحوم المنصف باى الى « بوردو » ، وحزن بلاده تونس من اجلها . فلذلك تخاطبها :

ما تِبـْكـِيشي هَـايْ يـبْـَكـِي اللِّــي بَـكَـاكْ   تـْدُورْ الأفْلاَكْ
تـْهِـبْ رِيَاحْ النَّصَرْ وِيَروَحْ بَـابَــاكْ

وقد كانت هذه الشاعرة ، ذات اثر بعيد وتاثير متصل فى نفوس شعراء العائلة ، وانا بالذات لما اخذته عنها ، وسمعته من اثار فنية مبدعة ، ابعد ما تكون من الصنعة والتكلف . وان انسى لا انسى وانا صغير صوتها الشجى عند وفاة جدنا الشيخ ابراهيم خريف وهى تنوح :

بْلاَ بِـيكْ لاَ نَوْرْتْ لاَ سْمَاحِتْ مِنَ البَالْ طَاحَتْ
شَكِيتْ رُوحْ الطَّرَبْ في جِنَاحِكْ
بِلاَ بِيكْ لاَ نَوْرتْ لاَ زَهَاتْ كِمَاجَاتْ جَـــات
ياليتْ شعري هل سمعوا لِبْنَات بِالبطِلْ لَشْهمْ دَفْنُوهْ ماتْ
يَسْتَاهْلُوا يِنَوحُوا النَائِحَاتْ عَمَـاتْ وِخَلاَتْ
بِـنَـات وِخَـــوَاتْ مِضَّـــادَاتْ
عَـلِ القْـرَاحِـتْ وَمَالاهْ يَا عَرْصِةِ العِزْ طَاحِتْ

قريحـة تفتـح :

وتفتحت فى هذا الجو قريحة سيدى مصطفى ، وتربى ذوقه الشعرى ، فاخذ يحاكى الشعراء الكبار من الذين اشتهروا فى نظم الملحون ، ويجاريهم فى مختلف الاغراض . وقد تاثر بالعديد منهم واخص بالذكر حدى ، والعرف بن زكرى ، واحمد بن موسى ، والنجار ، وهو لم ينظم فيه الا بعد التمرس بفنونه واساليبه ، ودراسته دراسة متعمقة باحثة . وقد كان له الفضل فى الكشف عن عديد من رجاله بالترجمة لهم ، والتنقيب عن اثارهم ، وحتى صورهم الشمسية. وقد نجد فى مجلة « الثريا » بعض مقالاته عن الأدب الشعبى كان ينشرها بعنوان « فى الادب الشعبى » ، وكذلك محاضراته فى الاذاعة فى نفس الموضوع ، والتى باع منها جزءا كبيرا بعد ذلك الى مكتبة الاباء البيض . وقسم الادب الشعبى بوزارة الثقافة .

وقد نجد له فى هذه الكتابات مقارنات طريفة ، كالتى

كتبها عن مقارنته لموقف مسدس لاحمد بن موسى برواية « الشيخ والبحر » لهمقواى . وهذا الموقف يحلل فيه ابن موسى كلمة الحب الى افعال لا بداية لها ولا نهاية فيقول فى ذلك :

سَعَانِي هَوَى العَازْبَةْ لِيْنَ حَرَصْنِي
كِبَسْنِي دَهَسْنِي
حَبَسْ . حَسَّنِي هَسِّنِي لِيْن ترسْنِي
سَعَانِي هَوَى الْعَازْبَهْ لِيْن صِلبْنِي
رَعَبْنِي . شَغَبْنِي
عَطَبْ طَبْنِي كَبْنِي لِيْن قَلَبْنِي
ضَرَبْ هَبْنِي لِيْنْ غَلَبْنِي
نِكَبْنِي نَهَبْنِي
تَفَصَلْتْ له ثَوْبْ بَدْنُو لَبِسْنِي

الى آخر هذه السلسلة من الافعال التى لا حد لها . والتى تصور كلها مدى الغلب الذى لحق الشاعر من هوى صاحبته .

اما رواية « هينقواى » فهى كما هو معروف كلها تحليل لصراع شيخ مع سمكة قرش صراع مرير ينتهى بما يشبه الهزيمة والاستسلام فى النهاية .

شعره الشعبى :

وقد اشتهر لسيدى مصطفى من الشعر الشعبى « البرق »

وهو « قسيم » من النوع التقليدى يقول فى مطلعه :

شَيْـرْ عـَقَابْ غـْسَاقْ   يَا ماحـْسـْنـُهْ فِي المُزْنْ كيفْ يـْلُق
بِقـْدَايِـرْ الخـَـلاّقْ   قَادِرْ كرِيمْ يـَعْـطِي ولاَ يحْتـَقْ

وهو من نوع القسيم المقطوف وقد قدم له الشاعر بقوله :

« كان مما روضت عليه النفس بطول الممارسة ، والتتبع ، والدرس لفنون الاداب فى اللهجات الشعبية . وهى تفجر الملكات الفنية عند اذكياء الشعب من تلقاء نفسها ، لاجل توفير الغذاء الذهنى للطبقات التى لا تقرا » وكان بذلك حريصا على ايصال المتعة الفنية لكل افراد الشعب الذى يعيش فى محيطه ، ورغم ان ابداعه الشعرى فى هذا النوع قليل ، وهو باعترافه يقول ان الشعر الشعبى اصعب ممارسة من الشعر العربى ـ الا اننا نجد بعض الروائع من الابيات كما فى قوله يصف محبوبته بعد التخلص من وصف الغارة على طريقة الشعراء القدامى :

وَلْفِـي كِـحِيـلْ ارْمَـاقْ
طَلّتْ مِـنَ الجَـحْفَـهْ الجِـبِيـنْ بْـرَقْ
رَكَـحْ قَـدّهَـا تـوّاقْ
يـْقُـولْ صَارِي في الْغَرِيقْ يـْشُـقْ
مِـنْهَـا دِلِيـلِـي ضَـاقْ
سِـكِـنْ حُـبّهَـا وَسْطْ الجَـوَاجِـي وْثِـق

دَمْعِي عَلَى لَمْوَاقْ
مِنْ بَعْدْهَا حَسِيتْ جَاشِي حَرَقْ
صَارَ العَسَلْ تِرْيَاقْ
الْكَبْدْ ذَابِتْ والحَشَا تِسْحَقْ
لِيهَا قليبِي شَاقْ
بِنْتْ العَرَبْ الزين مِنْهَا خَلِقْ
فِي زُولَهَا عْشَاقْ
وَعلَى رِضَاهَا نْزُوزْ كُلْ خْنَقْ

والقارىء لهذا النوع ، يعرف الهنات التى تبدو ظاهرة فى هذا البرق . والتى منها التقليد الظاهر خصوصا لقسيم حدى عايقه .

وقد نظم بعد ذلك الاغنية الحضرية من امثال « فرحانة تلعب » التى يغنيها الهادى الجوينى « وشرع الحب » من غناء مطربات الراشدية . وياعز تونس يا حبيب بلادك » التى كتبها بمناسبة ميلاد الرئيس الحبيب بورقيبة وغيرها قليل .

وهو لم يكثر من كتابة الاغنية الحضرية ، وذلك لصعوبة المعاناة فى النظم بهذه اللغة من جهة ، ولاختلاط لغته الحضرية بما فى اللغة البدوية من الفاظ يعسر انسجامها مع الغناء الحضرى . وهناك قطعة جميلة المعنى ، حلوة الالفاظ ، ولكنها لم تشتهر له ، وقد بداها ببيتين من الشعر القديم لمحمد العيارى هما :

بَدْرَه من البُعْدِ نَظْرِي رَمَقْها بَهَاهَا سَبَقُوا
نُجُوْم السَمَاَ غيبْوُ مِنْ شَفَقْهَا

وقد زاد سيدى مصطفى حتى اكمل بقية القطعة فقال :

بَدْرَه مِنَ النْبُعْد لاحت تَشَهْرَتْ الدّنْيَا تبْهَرِتْ
نُجُومْ السّمَا غيبو كيْفْ ظهرتْ
بِالسِّرّْ والزِيْن غَلَبِتْ وقَهْرِتْ لاَ مِنْ لَحَقْهَا
سُبْحَانْ مَعْبُودْ قَادِرْ خَلَقْهَا
بَدْرَهْ مِنِ النْبُعْد بَانَتْ تَلُوح بَهَاهَا يْفُوحْ
بِقَامَة وخُنَارْ تِسْلِبْ الرّوحْ
خَلاّتْ في وسْطْ قَلْبِي جَرُوحْ كُثْرَتْ مِزَقْهَا
كْوَاهَا الهَوَى بِالمَحَاوِرْ حَرَقْهَا
بِدْرَهْ مِنَ البُعْد خَطْفِتْ انْظَارِي وَشَغْلِتْ افْكَارِي
القَدْ مَعْدُولْ فِي مِثْل صَارِي
وْعيونْ ورْمَاشْ رِيم الصَحَارِي قَلْبِي عَشَقْهَا
وَرْدَهْ إذَا فَتَحِتْ فِي وَرَقْهَا
بَدْرَهْ مِنَ البُعْدْ كِيف العَلاَمْ تْشُق الظلاَمْ
اللّطفْ مَا حَرْ لَحْظِ المْيَامْ
هَا لزّيْن مَا صَارْشِي يَا سَلاَمْ الدّنْيَا طِبَقْهَا

قلـوب اللـي شافُونْ جـمْله سَـحَقْهَا
بادره مـن البُعد تْسبـي النَّظَرْ   بَهَـاهَـا ظَـهَـــرْ
مَضْحِـكْ ونيبَـانْ فـي مـثْلَ   دُرْ
وشْعَرْ وجْبـين ليلةْ مطَـرْ   شَيَّـرَ بَـرَقْهَـا
وغَطّى جميعَ النـفَـايِضْ عَـزَقْهَـا
بَدْرَهْ مـن البُعْدْ لاحـتْ سبـتْـنـي   بِـنَظْرَهْ خَـدِتْـنـي
انَا عَبْدَهَـا بِلاَ دَرَاهِـمْ شَـرِتْنِــي
بْكَاهَا مِلْكَ رَقْبتي كي رِمتْنـي   شَبَّـةْ رِمَقْهَا
حَـرْبَاتْ فِـي وُسْطْ جَـاشِي رِشَقْهَـا
بَدْرَهْ مِـن البُعْدْ فـي قَدْ سَرْولْ   تَـجَـنَـنْ تَـدَرْوِلْ
فِـي وصْفْهَـا جِـبتْ قُولِـي مْغَـرْبَـلْ
انَا مصطفى شاعِر العِشْـقْ   الاولْ نُرْبطْ حلَقْهَا
ومْعَـابِـرْ الشّعْـرْ عِـنْـدِي طُرُقْهَـا
نَسْبِـي خْرِيّف وْجَـدِي مْحـمّدْ   البَدْرْ الامْجِــدْ
كْــلاَمِـي مـن الصّغْـرْ ثَـابِتْ مَذَبّدْ
مْصَفّي مْنَقّي مَدَقّـقْ مْسَمّدْ   انْشِدْ نفَقْهَا
يْدِلّكَ عَلى الطّـايْرَهْ ومِنْ وثَقْهَا

وقد كتب على هذه القطعة بخطه : هى من نظمنا ما عدا البيت الاول ، وهو كما اشرنا للشاعر العيارى المعروف وقد

رايت البيت الاول فى ديوان العيارى كما يلى :

بَدْرَهْ عَلى البُعْدْ نَظْرِي رِمَقْهَا   بَهَاهَـا سْبَقْهَـا
كِيف رِيتْهَـا حَـبْ قَلْبِي عَشَقْهَـا

وقد اكثر العيارى فى ديوانه من نظم « المسدس » ، ومن ابدع ما قرات له فى الغزل قوله :

حَاجِبْ كِمَانُونْ خَطْ الْبَرِيَّةْ   وشفّةْ طِرِيَّـه
وَالعين من الكُحُلْ تَرفُعْ وَقيَة
حَاجِبْ كَمَانُونْ خَطّ المِثَلْ   وشَفَتَةْ عَسَـلْ
والعيْن مِن الكُحْلْ تَسَبِي العَقَلْ
حَسِيتْ صَامُورْ مِنْهُمْ شْعِلْ   وقَلْبِي انْذِيَـلْ
مِرِيّضْ لاَنْبَاتْ لِيلَـةْ هَنِيَّـه

مقـارنـات :

غالبا ما كان سيدى مصطفى يربط بين ما يقراه فى ديوان الشعر العربى ، وبين الشوارد من روائع الشعر الشعبى ، ويحاول ان يبرز من خلال المقارنة التلاقح الذى يظهر فى المعنى ، والفكره ، والاسلوب . وقد كان شاعرنا مغرما بتدوين كل ما يقع تحت سمعه . او بصره ، خلال مطالعاته العديدة المتنوعة ، حتى انه اجتمع له العديد من « الكنشات » التى تحتوى على كل جديد وطريف ، من جيد

الشعر وغريب النوادر والتواريخ والملح . ومن المستحسن ان نرجع الى بعض هذه المدونات حتى نتعرف اكثر على مدى تغلغله فى الادب ، وتنوع ميوله ، وتعدد اذواقه ، فمن ذلك بعض التعليقات التى يقارن فيها بين الشعر الشعبى ، وبين ما يحفظه من الشعر القديم الذى كثيرا ما تلتقى معانيه ببعض معانى الشعر الشعبى والبدوى منه خاصة . فمن ذلك قول كثير عزة :

اذا جئتها وسط النساء منحتها صدودا كأن النفس ليس تريدها
ولي نظرة بعد الصدود من الجوى كنظرة ثكلى قد اصيب وليدها

وقال الشاعر الشعبى فى نفس المعنى :

قِـدّامْ نَـاسِـكْ نَكْرْهِـكْ وْنْسِبّــــكْ
وفِـي وسْـطْ قَلْبِـي نِعْشْقِـكْ وِنْحِبّكْ

او قول المجنون . وقيل بل لذى الرمة :

واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بَلّلَه القطر

فترى الشاعر الشعبى يقول فى نفس المعنى :

نِتَـرْعَـــدْ نِتَقْفَــــظْ
الاّ سْمِعْتْ مِنْهُ باسْمْهَا يِتْلَفِـظ
زَيْ طِيرْفِي بَلْ المِطَرْ يِتْنَفْـظْ
هَـكَاكْ يَهْتَـزْ البِـدَنْ بْكُلَـه

بَـرَاجْـهَا لاَزِمْ قَـرَا ومِـحَـفِـظْ
بْـرُوجْ الفِـلَكْ يَعْـرِفْ حْسَابْ الهِـلّه

فهذه الالتقاءات البديهية التى يلتقى فيها المثقف وغير المثقف ، هى الخط المشترك للعقل الانسانى فى سموه ونيل مداركه .

التقـــاء القرائـــح :

وكما كان شغوفا بالمقارنة بين الشعر الشعبى والشعر العربى فى مدوناته واحاديثه ، كان ايضا مشغوفا بجمع الاشعار التى تتحدث فى موضوع واحد ، وترمى الى هدف متحد ، كما فى الحديث عن الوشائج التى تقوم بين الاهل العلم والادب ، وتصبح بمثابة النسب والدم ، حيث تتباعد الانساب . فمن ذلك قول ديك الجن :

دعاك اخ لم تحوهِ بقرابَةٍ   بلى ان اخوان الشكول اقارب

وقول ابى محمد بن على الاموى :

ان كانت الابدان قائمة   فنفوس اهل العلم تأتلفُ

وقـال البحتـرى :

اذا تألفت الآداب واتفقتْ   دنَتْ مسافة بَيْنَ العُجم والعَرب

وقال أبو تمام حبيب بن أوس العطائى :

انْ فَاتنَا نَسَبٌ يؤلف بَينَنَا
أدبٌ أقمناه مقام الوالدَ

او لبحثه عن الاشياء والاسماء المعاصرة فى القديم كما فى قول جرير يذكر النفط « البترول » :

وداويت من عُرّ الفرزدق نقبةً بنفط فما امست يخاف نشوزَها

ومن ذلك قول تميم بن المعز الفاطمى فى ذكر « المزموم »

فلما تناولن الغناء شواديًا
واتبع « مزموم » من الضرب مُطْلَقُ

ولم اتعرض لهذه اللمحات الا لابين مدى المؤثرات التى كانت تغلب على ذوقه ، وشغفه بكليات الشعر والتنقيب عن مصادره ، وهو الشىء الذى غلب على طبعه ، واعطاه القوة البيانية ، وطبيعة الانتقاء فيما يكتبه ، والاعتناء مع ذلك بالتنقيح والتجويد .

تنقيحات :

وقد يصل فى بعض الاحيان الى نسخ خمس او ست مسودات للقصيدة الواحدة ، كما وقع بالنسبة لقصيدة « عشيرة الحق » . وقد ضمن فى هذه القصيدة المبادىء التى كان يؤمن بها ، والتى اخذها عن مصادر اسلامية ، كدعوة الخليفة عبد المؤمن بن على الى اختيار نخبة من شباب الامة ، وعزلها عن المجتمع ، وتلقينها المبادىء الاسلامية السامية ،

وحب الوطن حتى تكون في المستقبل درعا حصينا يقيه الملمات والكوارث :

ايها الباذِرُونَ في خلد النشء بذورَ العُلاَ البدارَ البدارَا
طَهّرُوا الحقلَ بالتعهدِ كيْ تجنُوا
كما تشتَهُونَ تلكَ الثِّمَارَا
اجمعُوا حول ذلك المنبرِ العاليِ شبابا منفداً ، مُخْتَارًا
فيهِ من نخوةِ العروبة بأسٌ وطموح وهمةٌ لا تجَارَا
همْ لَعمري عشيرةُ الحقّ ان اعرضَ اهلُ الطاغوتِ عنهُ ازوِرَارَا

وفى هذه القصيدة تنديد بالاباء الذين يسلمون ابناءهم لمدارس المبشرين ، فيتلقون من صغرهم المبادىء التى تنافى ومبادىء دينهم ، ويشبون منبتين عن وطنهم وقوميتهم :

عرفَ المجرِمُونَ من أيْنَ يُؤتَى الشعـ
ـبُ. واستَنْبَطُوا لِذَاكَ ابتِكَارَا
بعدَ ما استَعْمَرُوا البلادَ جميعًا
انشاوا في عقولِنَا استِعْمَارَا
رصدوا للأحْيَالِ اشياخَ سوءٍ
يظهرونَ التثقيفَ فيهم شِعَارَا
يَأخُذونَ الشبابَ في مَيْعَةِ العمرِ
ضعافاً لا يَفْهَمُونَ صِغَارَا

ويـربّونَـهـمْ وقـد مكـرُوا المــكــــرَ
وكــــانُـوا عصابــــةً فجّـــــارًا
يوسِـعُـونَ النفوسَ مسخا وتشـويهـًـــا
فتنسـابُ في العقـودِ انحِــــــــــدارًا
حـارَ في امــرِهـَا الطبيبُ ولــم يعْــــ
ـرِفْ لا يـرادِ كنهِـهَـــا اصــــــدارًا

ويشير فى هذه القصيدة بالذات ، الى فئة من النـاس كانت تتخذ من الشعـارات والخطب دخانا تعمى بـه عيـون النـاس ، وتضلهم عن طريق الحق والرشاد ، بما ياتون بـه من زخرف القـول ، ومذق الكلام الذى يخدر البسطـاء من العـامة :

رُبّ جمعٍ مثلُ النعـامِ تولاّهــــم
فتـونٌ غشّـــى العيــــونَ انبهــــارًا
انكـروا في امــــر لهـم كـل فضـــل
واصــروا واستكبــروا استكبـــــارا
ان بـدا نـاعقٌ يزخرفُ زور القولِ
ظلـوا مخـدّريـنَ سُكَــــــــارَى
وتغشتْ وجوهَـهُـمْ مسحــةُ الــراضـي
بمـــا كـــان لا يــــرى انـكــــارا

وإذا مـوّهَ الغـــريــبُ عليهـــــــم

أطـرقـُوا من حيـائـِهـِم كـالعـَــذارَى

بـِئـْسـَمـَا يَصنعُ الخـَجـُولُ اذا سِيمَ هـَوانا في عرضِهِ وخـَسارا

وقد كانت هذه القصيدة حشدا للمبادىء التى يؤمن بها الشاعر ، وصورة صادقة للظروف التى عاشتها البلاد تلك السنوات العصيبة . وقد نظمها فى سنة 1948 ، وافتتح بها معهد البحوث الاسلامية بالمدرسة الخلدونية محاضراته ، فى جمع حاشد من اهل العلم والادب والشباب ، وذلك خلافا لما هو موجود بالديوان الذى ارخ نظم هذه القصيدة فى سنة 1946 ، اذ ان اكثر قصائد الديوان كان اعتماد الشاعر فى تاريخها على ذاكرته ، وكثيرا ما كانت تخونه هذه الذاكرة .

وقد كانت فى اولها دعوى الى اظهار الحق ، لان فى اخفائه باطلا . وكان ذلك بمناسبة قيام جماعة من الحزب القديم ، ينادون بالعمل السلبى ، واخفاء ما يجب اظهاره من التنديد باعمال المستعمر ، ووجوب الكفاح العلنى لاجلائه واخراجه من حضيرة الوطن . فكان مطلع هذه القصيدة مناداة باظهار الحق حيث يقول :

عـزةُ الحـقّ انْ يقـَـــالَ جـِهـَـــارًا

ارفــعَ الصوت في الضّيَـــاء نَهـَـــارًا

وقد بقى ينظر فى هذه القصيدة . ويبدل ويغير فى الفاظها الى حين اعداد ديوانه (شوق وذوق) سنة 1965 . ومن الابيات التى غير بعض الفاظها هذا البيت الذى جاء هكذا فى الديوان :

ظلّ يفشُو دفينَهُ وأشدّ الـداء فتكـًا
بـالجِسْـمِ قــرحٌ تــوَارَى

وقد كان البيت فى النسخة الاولى التى نشرت بجريدة الاسبوع ، والتى حلقناها على جدتها هو :

ظـلّ يفشُــو دفينَــهُ واشـدّ الـــدا
ءِ فَتْكـًا مـًا اعجَزَ الأبْصَــارًا

وانا اميل الى البيت فى صورته الاولى ، وهناك بيت اخر ادخل عليه التغيير ايضا وهو فى الديوان :

رب جمـعٍ مثـل النعـامِ تـولاّ هُـمْ
فتـونٌ غَشَىَ العيـونَ انبِهَـارًا

وهو فى الاصل هكذا :

ربَ جمعٍ مثلُ النعامِ تولا هُم فتونُ الهوَى فبَاتُوا حيَارَى

وهو ابعد عن التكلف من البيت الذى احدث فيه التغيير.

تبديـل وتغييـر :

وقد صار التبديل والتغيير مذهبا يدين به ، ويعتبر التنقيح اساس الجودة فى الشعر . وكثيرا ما كان ينشد من من الشعر القديم ما يدعم به مذهبه مثل قولهم :

وشعرٍ قد أرقْتُ لهُ طويلاَ   أجنّبُه المساندَ والمَحالاَ

وهو مذهب فى النقد ومدرسة تنسب الى زهير بن ابى سلمى ، ثم اعتنقها ابو تمام وغيره من الشعراء . وهذا ليس كمثل قول ابى الطيب المتنبى :

انام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر الناس جراها ويختصم

وقد كان متاثرا فى قصيدته « عشيرة الحق » بسورة « نوح » عليه السلام ، وبقصيدة حافظ ابراهيم فى حريق « ميت غمر » التى يقول فى مطلعها :

سائِلُوا اللّيْلَ عَنهُمْ والنّهَارَا
كيفَ امْسَتْ نِسَاؤُهُمْ والعَذَارَى

وهناك ايضا قصيدة على هذا الروى بعنوان « دعاء نوح ، للشاعر جميل صدقى الزهاوى . كان سيدى مصطفى يرددها ويعجب بها .

وقد بدل شاعرنا فى قصائد كاملة ، مثل قصيدة « الحديد » . التى ادخل عليها تغييرا فى جميع هيكلها . بعد ما كانت قصيرة كما هى موجودة بديوانه الاول « الشعاع . ولهذه القصيدة قصة طريفة لا باس من ذكرها . وذلك انه كان فى اواخر الحرب العالمية الثانية برنامج لاذاعة الشعر عنوانه « آخر ما نظمت » ، يذيع فيه الشاعر آخر انتاجه ، ثم يعاد نشره تحت نفس العنوان بمجلة « الثريا » ، ومن ذلك ان سيدى مصطفى حمل قصيدته « الحديد » الى مدير الاذاعة فى ذلك الوقت . ولسنا فى حاجة الى ذكر اسمه وعند ما قراها

رفض السماح باذاعتها ، لانها غير موزونة . فما كان من سيدى مصطفى الا ان حمل كتاب « ميزان الذهب » لاحمد الهاشمى فى علم العروض ، واقام الحجة فى مجلس من اصحابه بتحت الصور بتقطيع البيت ، وارجاعها الـى بحـر مـن البحـور الخليلية ، وهو البحر السريع الذى عروضه « مستفعلـــن ستفعل فاعل » وانشده البيت الذى طبق عليه الخليل هذا الوزن ، وهو بيت عدى بن زيد العبادى الذى يقول فيه :

قد يدرك المبطىء من حظه　　والخير قد يسبق جهد الحريص

ومن ذلك الوقت تكونت علاقة غير حسنة بينه وبين ذلك المدير ، فكان يلقبه بلقب خاص على عادته مع من تقوم بينه وبينهم علاقة سوء تفاهم . ومع ذلك لم اره يحقد على احد ، او يذكر انسانا بشر الا ما كان من بعض الحملات الشعواء التى يوجهها للمستعمر من خلال شعره ، والتى تمتلىء بالحقد والاحتقار والكراهية . وقد كان يسمى ذلك « الحقد المقدس » . ونجد ذلك وامثاله فى قصيدته « ملحمة بنزرت » التى اتى فيها بكل مقذع وجارح ، ووجه فيها الى المستعمر كل مسبة ، حتى انه بعد تسجيلها للاذاعة ، تعرض له احد المكلفين بالقسم الادبى قائلا : انك مشهور بالرقة واللطافة والظرف فكيف يصدر منك مثل هذا فكان جوابه له :

انا مثل الماء سهل سائـــغ　　واذا سخن آذى وقتـــل

شــوق وذوق :

كان لسيدى مصطفى آراء كثيرة تتصل بعمله الشعرى ، منها انه لم يكن يطمح فى يوم من الايام ان يملا مكان الشاعر ،

ويبرز في الصدارة بين معاصريه ، لان العوائق التي اعترضه ، والصعوبات التي صادفت طريقه ، جعلت ممارسته للشعر تتسم بالصعوبة في اكثر الاحيان . ومن هذه العوائق التي عاقته عن الممارسة الحقيقية ، والتفرغ لفنه الادواء والعلل التي كانت تنتاب جسمه والتي هي في الحقيقة مانع من اكبر الموانع للاتقان والاجادة . وهو يرى ان الفنان مهما كان يجب ان يعيش حياة مثالية مجردة ، وان يسمو بروحه الى الافاق الخارجية ، والعوالم البعيدة عن المادة ، ولذلك كان يقول : كنت احاول دائما ان اصل باعمالي الى المثل الاعلى ، لاني اعتقد انه ليست هناك هامشية في الادب ، فاما ان يكون في مستوى الجودة واما لا يكون .. وهو بذلك يانف من البقاء في وسط الطريق ، ولكنه يرغم كل ذلك كان يقول : « لو كنت قويا » وضعفه هو الذى ابعده عن مزاحمة التيارات الكبرى ،

ومواجهة الانتفاضات التي عاصرها . وبقي الشعر عنده رياضة وتجارب وان كان محتوى هذه الاعمال التي هي نتيجة التجارب يضعه في الواجهة مع الشعراء الذين تحملوا مسؤولياتهم ابان الثلاثينات والاربعينيات ، لانه صادم بشعره ، وقاوم ووقف وجها لوجه مع المستعمر ولم يخن ضميره قيد انملة .

اللظى والنار :

ومن الذكريات التي ما زالت عالقة بذهني ذكرى مؤتمر الثقافة الاسلامية ، الذى انعقد سنة 1949 بتونس ، وحضرته وفود كثيرة من الدول الاسلامية والعربية . فقد القى سيدى مصطفى في حفلة افتتاح هذا المؤتمر ، قصيدا فيه كثير من الحقد والكراهية للمستعمر ومطلعه :

هَـل أرَى في ٱلْـجَـنْـل روضًا عبقـريـًّا
جـرّرت فيـهِ الصبـا ذيـلاً نَـديًّـا

وكان من الحوادث التى يتحدث بها الناس فى تلك الايام ، حادث الحريق المهول الذى شب باحد احياء باريس . فما كان من الشاعر الا ان ضمن قصيدته تلك الحادثة ، فقال فى تشف لا نرى له محلا :

اللظـى والنـارُ تـرمي ارضَـهُـم
زادَهـا اللهُ اشتعـالاً وصليـا

وبالرغم مما فى هذا البيت من حقد ، فان العاطفة الجامحة التى كانت تغلى فى صدور الوطنيين اكبر من كل منطق وعاطفة .

شعـره :

وقد فكر فى جمع شعره مرارا عديدة ، وسمى دواوينه اسماء متعددة ، فشعر صباه افرده فى ديوان سماه «الناعورة» ، ولكن لم يقدر له الظهور ، ولعل للعوامل المادية دخلا فى ذلك ، وقد بقى الحلم يداعب خياله حتى اختار من الديوان الاول بعض اشعار استجادها واضافها الى الديوان الثانى الذى سماه « الشعاع » . وهو الذى تم طبعه فى 25 جويلية سنة 1949 الموافق لستة وعشرين رمضان سنة 1369 . وقد بعث الى برسالة وانا بنفطة اشعرنى فيها بصدوره . واشار الى الاية الكريمة « انا انزلناه فى ليلة القدر » كناية على صدوره فى تلك الليلة المباركة ، وجريا على عادته فى الاستشهاد

بالآيات القرآنية ، والاقتباس من الذكر الحكيم . وقد صدر عن مطبعة المنار بنهج « التربونال » ، وطبعه على نفقته الخاصة وقاسى في طبعه واخراجه التعب الكثير ، وجر عليه من الويلات والكلام ما بقي يتذكره الى اواخر حياته . ووزع اكثره هدايا على الناس كعادة الشعراء بتونس عندما يطبعون كتابا ، فيتهافت الناس على طلب الهدية التى كتبت بالعرق ، وطبعت بالتضحية وبذل ماء الوجه ولله فى خلقه شؤون .

جائـــزة قرطـــاج :

ومن المفارقات العجيبة فى ذلك الوقت انه قدمه الى جائزة كانت بتونس فى عهد الاستعمار يسهر عليها اتباعه تسمى « جائزة قرطاج » . ولكنه رفض ولم يقبل برغم ان مستوى الديوان بالنسبة لما كان ينشر فى ذلك الوقت فوق المعتاد ، مما يقدم للجنة الجائزة . ولم يقدر للديوان الذى اعلن عنه فى صفحة الغلاف الاخير « للشعاع » ان يظهر وهو « اللهيب » . وذلك للسبب نفسه وهو العسر المادى والافلاس الذى جره عليه الديوان الاول .

الديـــوان الثـــانى :

وفى الستينات ، حين فكر فى اخراج ديوانه مرة ثانية ، عدل عن التسمية الاولى وضم الى الديوان الجديد بعضا من قصائد ، ديوانه القديم وهو « الشعاع » ، وابرز كل ذلك فى ديوان جديد سماه « شوق وذوق »

شـــىء لا يصـــدق :

وقـــد طبـــع مـــن هـــذا الديـــوان ثلاثـــة آلاف نسخـــة

بمعاونة وزارة الثقافة ، اخرج منها الى السوق الفا قبل وفاته ، وبقي بحوزته الفان . وقد زاره احد الكتبيين في اخريات ايامه في المستشفى العسكرى ، وطلب ان يخرج الباقى الى السوق وذلك بعد عام واحد من صدور الديوان الذى صدر فى 1965 فقال له سيدى مصطفى بالحرف الواحد : « لا اصدق ان الشعب التونسى يشترى الف نسخة من ديوان شاعر في عام واحد ، ولو كان هذا الشاعر انا . ولو كان الامر جدا لوزعته مجانا استبشارا بهذه الظاهرة الغريبة والنادرة الحدوث فى محيطنا هذا »

مختـــــارات :

وقد اشار في مقدمة هذا الديوان الى ان جمع الشعـر الذى قاله فى حياته كله لا يمكن . ومن رايه ان لا ينشر الشاعر الا ما يختاره من شعره ، وان يبقي تجارب صباه لنفسه ولمن يريد ان يبحث عن خبايا حياته بعد ذلك . « هذا كل ما اثلت » من شعر وليس لدى خير من هذا » فهو لم يستتر وراء الحقيقة، ولم يطنب في الدعوى العريضة ، وانما قدم نفسه على سجيتها للقارىء ، ولم يرد ان يموه عليه . وقد كان متباين النزعات والتاثيرات ، فهو صورة لحياته التى عاشت التناقض فتراه فى قصيدة يرتفع الى اعلى مستويات الحزن كمـا فى رثـاء الثعالبى حيث يقول :

ما اشد البلاء ان غلب النحس على امة واهدي السهاما

مـــا امـــر البكـــاء

ان جمع الدمع على مقلة واصفي الكلاما

بينما تراه في قصيدة اخرى راقصا ، هازجا كما فى قصيدته الرائعة « راقصة » التى كتبها فى سنة 1949 :

نحن في كون من البهجة طلق الوجه ازهر
لابس برد شباب اغيد اهيف اجور
كل شخص نال من امتاعه الحظ الموفر

وهو فى كل ذلك يمثل تناقض عصر واضطرابه ، وعدم اتخاذه وجهة موحدة ، وطريقا تتضح فيها التجربة ، ويتبين من خلالها اسلوب الشاعر ومذهبه فى الفن والحياة .

وقد قسم الشاعر ديوانه « شوق وذوق » الى قسمين تقليديين وهما : صفحات من ديوان الحماسة .

ويحتوى هذا القسم على القصائد التى خلد بها احداث تونس ابان الثلاثينات والاربعينات ، وقصائده فى دول المغرب العربى ، وذكريات المدن والرجال من الزعماء والمصلحين .

والجزء الثانى من هذا القسم يحتوى على الذكريات والمراثى » ، وفيه القصائد التى رثى بها اصدقاءه ورجالات العروبة والمغرب وقصائد الذكرى كقصيدتى ابن خلدون والمعرى .

2) صفحات من ديوان الصبابه

ويحتوى هذا القسم على قصائد الوصف والحب والقصائد التى كان يحلل فيها بعض الظواهر النفسية مثل ظاهرتى الندم والنسيان . ولا يخلو هذا القسم من جوانب « صوفية » تنبض بالحب الصادق والهوى العميق .

3) صفحات من هنا وهناك

ويحتوى هذا القسم على تجارب متنوعة فى الشكل والمضمون ، وكذلك على اغراض مختلفة منها الوصفى .

والاجتماعى وقصائــد الاخوانيات ، واخيرا « ملحمـــة بنزرت » وما كتبه من شعر شعبى « كالقسيم » و « الملزومة » .

تسميـــة الديـــوان : وكان لسبب تسمية الديوان الاخير قصة لا باس من ان نوردها ، وهى ان الشيخ محمد الكبير التابعى عم سيدى مصطفى كان صوفيا . يقــول بمذهب اهل الاشراق والحب الالاهى ، ويمزج حديثه فى مجالسه الخاصة باقوالهم ، والماثــور من اشعارهم وكان كثيرا ما يشفع اقواله تلك بهــذا القول « الحب شوق وذوق » .

ووجد شاعرنا صورة بقيت الى اواخر ايامه منطبقة فى خيالــه ، وترسبت كلمـــة « شوق وذوق » فى قلب الشاعــر الحساس فاخذ منذ طفولته يملا مخيلته وعقله بما يسمعه من كلام فى مجالس الكبار من اهله وعشيرته . وقد جاء ديوانه هذا صورة صادقة للبيئـــة التى عاش فيها ، من حيث تاثــره بلغـــة القرآن ، وتشبعه بالقوالب العربية الفصيحة . ولعــل القصيدة الاولى التى صدر بها الديوان ، وهى قصيدة ذكــرى يوم النصر ، تعطينا صورة اخرى عن ثقافته العربية الاصيلة .

اقتباسات وابتكارات : ففى يوم من ايام 1966 كنت اقرا عليه هذه القصيـــدة : ذكرى يـــوم النصـــر ، فى حديقة المستشفى العسكرى بالعمـــران فاشار الى انـــه متاثر فى قسم الوصف بهـــذه القصيـــدة القســـم الاول ، بـــزهريات الصنوبـــرى ووصفه للرياض ، وبمحمد ابن هانىء الاندلسى الذى كان شديد الاعجاب بشعره ، وينزله منزلة خاصة من نفسه . وقد سالتـــه عـــن راى المعـــرى فى شعـــر ابـــن هـــانىء ، وعن قوله فيه « ما اشبهه الا برحى تطحن قرونا » فاجابنى سيـــدى مصطفى :

« انـــه وان كانت الفاظـــه جزلة الا ان له ابتكـــارات قـــل

ان يصل اليها شاعر غيره في ذلك الوقت مثل قوله في الفاطميين :

لو انّ اخلاقَ البلادِ نبتْ بكم
لسكنتُم الآخلاقَ والادابا
أقسَمْتُم لو فارقت أجسادكم
لبقيتم من بعدها البابا

وقد اشار سيدى مصطفى في قصيدته : « ذكرى يوم النصر » ، الا ان الشعراء قبل الاستقلال لم تكن لهم شجاعة تمكنهم من مدح الرئيس بورقيبة ، وانه مدحه ايام كان المدح خالصا ينبع من صميم القلوب المؤمنة ، وذلك في القصيدة التي نظمها في حوادث 9 افريل 1938 بحامة الجريد حيث يقول في مطلعها :

سلامُ اللهِ للبَطلِ المفدّى وتسليمًا لمذهبِهِ وعَهدا
وآياتٍ من الاخلاصِ تُتْلَى ودَيْنا عن كواهلِنا يُؤدّى
وتكريمًا واعزازًا وفخرًا به ومنّى محلقة وحمدا
سلامًا للذي أحيَى وأبدَى وساقَ شواردَ الامالِ وفدا
سلاما للذي اقتحمَ الدواهي تخرّ لهولِها الاجبالُ هدا
وصادَمها بعزم عبقري وايمانٍ من اللهِ استمدّا

وقد اشار الشاعر الى هؤلاء الشعراء الذين تفتقت مواهبهم بعد الاستقلال ، وصاروا يكثرون من المدح فقال :

حبذا يومك الذي « انطق البكم » واحيا الموتى وأعطى وأجْزَل

واشار في هذه القصيدة الى شعار الحزب الدستورى فقال :

يحمد الله حينما انجز الوعد. الذي جاء في الكتاب المنزل
سيرى الله ما عملتم ويبقى اثرا راسخ البنا لا يُزَلْزَل

ومن الاشياء التى سوف نفرد لها بابا خاصا ، اقتباسه من وحى القرآن ، وتاثره بمبادىء الكتاب الكريم بصوره والفاظه ومعانيه كما فى قوله فى هذه القصيدة :

وكأن قد تنفّسَ الصّبْحُ عن يو
م انتصارِ ألم ترَى الصّبْحَ مقبِل

وهو يشير بذلك الى قوله تعالى « اليس الصبح بقريب »

رجل متدين : وهو وان تداولته اهواء شتى وافكار متعددة ، الا ان بنور الايمان بقيت واضحة فى قلبه . وذلك من اثر البيئة التى نشأ فيها ، وهى بيئة دينية كل افرادها من المتدينين المتزهدين ، فانت لا ترى من حولك الا مصلى او قارىء للقرآن او متبتل يقوم الليل ويقعده . وهذا ليس فى محيط العائلة فقط وحتى فى القرية التى ولد فيها الشاعر ، فقد عرفت بكثرة مساجدها وبوفرة من فيها من علماء الدين وحفاظ القرآن حتى سميت « بالكوفة الصغرى » .

وقد تطغى احيانا المسحة الدينية على شاعرنا فتظهر من الماورائية كما في قصيدته فى المحراب التى مطلعها :

أيها المِشْعَلُ المضيءُ بِقَلْبِي
أفُقَا كَانَ حَالِكَ اللون أسود

فقد كنا نتحادث يوما فى شانها ونحن ندرسها ، وقد كان جعلها فاتحة لكتابه الشعاع ، فحدثنى انه كانت تمر عليه الايام فى بعض الاحيان وهو يعبد ويصلى فى قنوت وخشوع يتملك عليه شغاف قلبه . ويهاجر الى الله فى ذلة وسكينة باحثا عن الطمانينة والراحة النفسية فى الصلوات والاذكار والاوراد ، ويتذكر الموت وهو فى حاله تلك فيغرق فى بحر من الخوف والندم والاشفاق ، وقد ذكر لى وهو يحدثنى القسم الشعبى المعروف « وحق من نعصيه ويسترنى » باعجاب بالغ يدل على ما يشعر به نحو الله من اكبار واجلال ، يتعدى كل حد . وقد انشدنى بعد هذا الحديث بيتى ديك الجن الحمصى وهما :

لـو كـانَ يَـدرِي الميت مَاذَا بَعْـدَهُ
بـالحَيّ يجـري بكـى لـه فـي قبـرهِ

غُـصصٌ تكـادُ تفيضُ مِنْهَا نفسه
ويَـكَـادُ يخـرجُ قَلْبُـهُ مِن صَدرِهِ

ومدى الزمن البعيد الذى كنا لا نفترق فى ايامه ولياليه ، لم ار المصحف يفارقه سواء فى السفر او فى الاقامة .

وفى قصيدة المحراب التى كتبها حوالى سنة 1946 ونشرت بمجلة « الثريا » فى باب « اخر ما نظمت » تواجد مع الذات وحب صوفى غامر فيه الشوق واللهفة والاستسلام المطمئن لكهف الله الحصين ، ففيها اتحاد بالذات وامتزاج بالكون . وذوبان فى طاعة الله الى الغاية القصوى والدرجة العليا . فهو لا يرى الا حبه شاغله عن كل شيء حوله حتى حزنه وما مضى وما تجدد من ايامه . وهذه الامثلة على قلتها

فى الشعر المعاصر الصق ما تكون بالادب الصوفى الذى سمعه سيدى مصطفى فى صباه . وهو ابن الزوايا العريق . فبقيت البذور فى ذاكرته . وان كان غطى عليها الزمن بما اسدله من ستور النسيان وما وجد فى دنيا الشاعر من معتقدات واراء تلقاها من تعليمه ومطالعاته . فانظر اليه وهو يخاطب الله بهذه الابيات التى تكاد حرارة عاطفتها تلفح وتصدق مرماها يهز اغوار القلب :

أيها الظاهِرُ الخَفِيُّ قديم أزليٌّ عندي هواكَ مؤبّد

أنت بَدَعٌ من الجمالِ فريدٌ أنت صرح من الجلالِ ممرّد

إنا لم اقتحم عوالمَكَ الزهرَ. واني للكُلّ ان يتوحّد

بل توزعت هائما تائها فيك. مشاعا مثل البهاء المبدد

وفى نهاية القصيدة يصرخ صرخة مؤمن متلهف ، يترقب الرحمة والعفو من مولاه ، ويرجو قربه ويعوذ من شر بعده ، وكانه يتعلق باذيال امل هارب من بين يديه :

فاعِذْنِي من شرّ بعدِكَ عنّي انّني مؤمنٌ منيبٌ موحّد

ولعل هذه الروح ورثها عن ابيه كما ورث عنه الشعر ان كان الشعر من الاشياء التى تورث وتورث .

شعر والده : ووالده الشيخ ابراهيم خريف كل شاعرا له مجموعة لا باس بها من الاشعار المدونة . ويغلب على شعره طابع الجد والتقليد والرصانة والاعتناء بالمحسنات البديعية على عادة اهل عصره . وكان ولوعا بالتضمين والتخميس والتشطير ، فمن ذلك قوله مخمسا هذين البيتين المشهورين :

نبيّ الهدَى ضاقت بيَ الحالُ في الورَى
وأنتَ بما أملْت منكَ جدير

فسل خالقي تفريجَ كَربي فإنّه
على فرجي دونَ الأنامِ قديرُ

فقال الشيخ مخمسا البيت الاول :

لقد ضاقَ ذرعي ان يَرى جسْمي السرى
ودمعيَ فوقَ الوجْنَتَيْنِ دَمًا جَرى
فقلتُ بجنحِ الليلِ ان عاقني الكَرَى
نبي الهُدَى ضاقَت بي الحالُ في الورَى
وانتَ بمَا امَّلْتَ منك جَديرُ

وقد نجد له اشعارا اخرى نظمها فى مناسبات خاصة مثل القصيدة التى كتبها فى مدح الرسول الكريم والتى يقول فيها :

صلّ يا ربّنَا عَلى خيرِ هَادِ ثمّ سَلم عليْهِ في كُلّ نَادِ
يا رسول الهدى ملكتَ فؤادي لذ لي الحبّ فيك يا خير هَاد
انتَ كنزي وانتَ غايةُ قصدي انت عِزّي وانتَ انتَ استنادي
ضارعٌ خاضعٌ يرومُ حماكُم ان بابَ الكريمِ للوُرّادِ

وهو ان كانت الاغراض التى ينظم فيها متداولة ومحدودة فى نفس الوقت ، الا اننا نجد له بعض الابيات التى تدل على

طبع شاعر . وقريحة فياضة فى قليل من الاحيان كقولـــــه متغزلا :

الا يـــا قضيبَ البـــانِ حيـرتِ مـرقـَـدي
فهـــل للـكـرى وقـتٌ فيـرتقـبُ الطيفَـــا
فقد حـرّكَ التـذكـَـارُ شجْوِي وارسَلَـت
عيـوني عقـيقـــًا مستمـرًّا فمـا انفَكـّـا
وأضـرَمَ نَـارَ الشـوقِ بيـنَ جَـوانِـحِـي
فهيجهـَــا ذكـرُ الحبيبِ فـــلا تَطفَــــا
فلـولا زفيـرٌ شـبّ في داخِـلِ الحَشَـــا
لأغـْرَقَـنِـي دمْـعِـــي واوردَنِـي الحَتْفَـــا

هذا بعض من الاشعار التى نظمها الشيخ ابراهيم خريف، وهى وان لم تكن فى مستوى القول الناضج الا انها تكفـــى للدلالة على معرفة قيمة صاحبها .

ولم اتعرض الى هذه الناحية الا لما اجده فيها من صلة النسب والقربى بين ما يعتمل فى نفس شاعرنا مـــن بـــذور الايمان العميق والتواجد فى حب الله ، وهو شيء قد تشربه من لغة القرآن . ونجد ذلك فى بديع الاشارات وكثرة التضمين من الذكر الحكيم فى شعره ، تضمينا فنيا لم يكن ناتجا عن اقحام وشدة جهد . بقدر ما هو ناتج عـــن طبيعـــة وعـــن ذوق تشرب الفصاحة وتمثلها . وقد وهب من الصفاء الذهنى ما تبتعد به عن طريقة اهل الاقتباس من البديعيين . ومن ذلك تضمينه الآية 94 من سورة مريم وهى قوله تعالى :

« قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا » .
ضمن هذه الآية الكريمة فى قصيدته « قربان الدم » ، التى كتبها فى الذكرى الثانية لحوادث 9 افريل سنة 1939 ، وقد كنا تعرضنا لذكرها :

دمُ الشهداءِ ارهاصٌ يُنَادي بأنّ اللهَ للباغي تَصَدّى
ومن جَمَحَت ضلالتُه ليَمْدُد لهُ في غيِّهِ الرحمانُ مَدّا

او قوله تعالى « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل »

ضمنها فى نفس القصيدة حيث قال :

كذا الناموسُ موتٌ في حياةٍ ويولجَ رَبّنَا الضّدّ ضِدّا

وكذلك الآية « لقد جاؤوا شيئا ادا » نجده يضمنها عندما يتحدث عن طمع المستعمر . بان استغلال بلادنا سيدوم له طويلا . وان ارضنا ملك له يهبها لمن يشاء ويفعل بها ما يشاء .

وظَنّوا تونسا لهُم تراثًا لقد جَاؤوا من الأشْياءِ ادّا

وضم الآية الكريمة « فبأى آلاء ربك تتمارى .

فى قوله من قصيدة « عشرة الحق » التى كان متاثرا فيها بسورة نوح :

أفشرك بخالق الحق أم انتَ بالاءِ ربنا تتمارا

ونجد هذه التضمينات فى اكثر قصائده حتى لا نكاد نحصيها ، ومرجع ذلك الى تعلقه بالتراث الاسلامى وتشربه للغة القرآن وكثرة سماعه وقراءته له . الشىء الذى اثر فى مشربه وتوجيهه وقد كان يفتخر بان لسانه لم تخالطه العجمى . وان اخذه للعربية كان من منابعها الاصلية واصولها الكبرى ، ويقول عن الفئة التى ينتمى اليها :

عُصِمُوا فلم يبهر عقُولَهم   من زبرج الأعلاج مَا يبدُو
لاخُضَّع لكن يزهدهم   في حق تَالد مجدهم وغْد

وقد ذهب فى استعمالاته العربية الى حد الاغراب والتطرف فى بعض الاحيان كما فى قوله « رصدوا للاجيال اشياخ سوء »

وذلك عوض شيوخ الجمع المستعمل وكقوله :

والبحر قد يسجم كماوية   ويجيش احيانا ويحتد

والماوية هى المراة ، لقد انعدم بتاتا من لغة الاستعمال ، والحقيقة انه لا يخلو شاعر من هذه الهنات خصوصا اذا كان متاثرا برصيد كبير من لغة التراث القديم . وقد نجد ذلك حتى عند المجددين من امثال بدر شاكر السياب وغيره .

ولكن سيدى مصطفى كان يفتخر مع ذلك بهذه الالفاظ التى تبعد فى غرابتها الى حد الايغال . وكثيرا ما كان يردد الابيات التى تحتوى على غموض فى تهكم مقصود .

وكما كان يحتذى الاساليب القرآنية ، كان يغترف من ثقافته الادبية ويحتذى حذو ما قراه فى الادب العربى من

الشعر والنثر مضمنا معارفه تلك فى مهارة بارعة ، ومشيرا الى المصادر والقصص والماثورات العربية التى تناسب المقام ، الذى تقتضى الاشارة لما يدعمه ، مثال ذلك ما نجده فى قصيدة « البعث » التى اصطبغت بلون من الحمرة فاقع . فنحن نعرف ان العرب كانوا يفتخرون باللون الاحمر وبلبسه ، ويستعملونه فى اكثر ما يتخذونه من مسكن وملبس وقد جاء فى امثالهم « الحسن احمر » وعليه قول بشارين برد .

وخذي ملابِسَ زينَـــةٍ ومُصبغَاتٍ فهيَ أفخَـــر
واذا خرجت تقنعـــي بالحمران الحسن احمر

وقول ابى الطيب المتنبى :

من الجاذِرِ في زيّ الاعَارِيب حمر الحُلى والمطايَا والجلاليب

وقد اخذ شاعرنا كل هذه الصور وضمنها فى قوله :

والحسن خير الحسن احمره والأسد افتك جنسها الورد

ونجده فى قصيدة القيروان ، التى القاها بمناسبة مرور الف عام قمرية على تاسيس القيروان ، قد الم بجملة مـــن الاحداث التاريخية التى مرت على البلاد العربية ، مشيرا الى الامجاد التى حققها العرب فى تلك الحقبة من الزمن البعيد ، قائلا فى ذلك :

تلك آثارُنَا تدُلُّ علينَـــا حجّةٌ ابْكَتتْ لسانَ الاعادي

ويقف يتساءل عما خطه عقبة من مجد فى القيروان حتى اصبحت ام العواصم ، فى وقتها ، وكعبة للقصاد ، وانجبت

رجالا عظماء زانوا مفرقها وانطلقوا يفتحون البلاد :

حدثينا عما اتى ابن نصيـــر وعن الفذّ طارق بن زياد

صاحب الطرد فاتح الجنة الدنيا وفخر القواعد والاجناد

ثم يتحدث عن غزو طارق للاندلس واصفا جيشه بقوله :

حوله الباسلون اشبال قحطان وكنعان كالنجوم الهوادي

ثم يشير الى خطبة طارق المشهورة بقوله :

وقال فلتُحرقِ السفينُ فلا رحمة . الاّ بالانتصارِ المُراد
حرقوها وقابلوا جسش علج ليس يُحصى عديدُه كالجراد
انجلى المعركُ الرهيبُ عن النّصْرِ لابناءِ شعبنا الامجاد

وفى قصيدة عشيرة الحق نراه يقول فى بيت ختامها :

اكبرُ النائباتِ تصغُرُ في العزْمِ
إذا كانتِ النفوسُ كبـــــــــــــــــــا

وهو يشير بذلك الى قول ابى الطيب المتنبى :

واذا كانتِ النفوسُ كبارا تعبتْ في مُرادِها الاجسام

او قوله فى قصيدة البعث :

او ذاك للشرفِ الرفيعِ دمٌ ليصان بين نجيعهِ المَجْد

كانه يلمح من خلال ذلك الى بيت المتنبى المشهور ايضا :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

ونراه فى قوله فى نفس القصيدة :

فئة اعاريب لهم شمـــم شمس العداوة في الوغى لد

يشير بذلك الى قول الاخطل فى بنى امية :

شَمْسُ العَداوةِ حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس احلاما اذا قدرُوا

وقد كثرت فى قصيدة « البعث » اقتباساته من المتنبى كما فى قوله :

ولنفدِ بالارْواح عزّتنا ان لمْ يكُنْ من بذْلها بُدّ
فلكلّ حي في الدّنى اجلٌ ولكل ضيْمٍ في الورى حد

فنرى ابا الطيب يقول فى نفس المعنى او قريب منه :

واذا لمْ يكنْ من الموت بدٌّ فمن العارِ ان تموت جبانا

او نراه مضمنا فى قصائد اخرى كما فى قوله فى قصيدة الجزائر يحدث عن الحدود التى نصبها الاستعمار بين الاشقاء :

وتخطّ هاتيك الحدودُ فانّها
من صنعِ ابليس اللعينِ المخرّبِ

وهنَتْ كَبَيْتِ العنكبُوتِ خيُوطُهَا
وغَدتْ كَوهْم ٍ في الضّمَائِرِ مختَبِ
وتقطعَتْ اسبابُهَا ورمامهـا
وبـدا الفضاءُ الطلقُ غير محجَب

فقوله « وتقطعت اسبابها ورمامها » ، هو من قصيدة لبيد ابن ربيعة . ونجد في قصائد عيد العروبة اقتباسا كبيرا من التراث كما في قوله :

« ومن البليَّةِ عذْلُ من لا يرْعَوِي
عن غيِّهِ وخطاب من قدْهَانَا

الشكل : كان الشكل من اهم المواضيع التي شغلت بال سيدي مصطفى ، رغم تشبثه بالعمود في كل اشعاره التي كتبها ، ولكنه مع ذلك جرب انواعا كثيرة من الاشكال مثل المخمس والموشح والمسمط . وحتى بعض القصائد التي يشبه توزيعها الشعر الحر مثل قصيدة « اين قلبي » التي كتبها في بداية الثلاثينيات 1932 وفيها يقول :

اي وربي اين قلبي

تحت بطن الارض ام فوق السماء

ام تلا شي بين طيات الهوي

وفي هذه القطعة مسحة من الرومانسية ، وهي اقرب ما

تكون من شعر المدرسة المهجرية ، وذلك لما فيها من وصف مغرق للطبيعة ، ومن حزن شفاف يظهر من وراء الكلمـــات سجينا خلف اسوار من الياس ، ونظم ايضا الموشح فمن ذلك قوله من قصيدة بعنوان « وهج الحب » :

عنــد نبع الــنهـــــــرِ   حيثُ القَاك على ضوءِ النُجوم
في غيـــابِ البَـــــدْرِ   اذ سجا الليلُ بصمتٍ ووجوم
نتـــرك الجدول يحكِـــي   والصــراصِير تعيـــــدْ
وريــاح الهجــر تبكِـــي   وتنــادِي مــن بعيـــد
ليـت شعـري مَا تُـريـدْ

لآ اهــاب الليـل ان الليــل جنــــــدِي
والقوامُ اللــدنُ قــد مَـال لـزِنْــدِي
اشهدِي يا ارْضُ فالمحبوبُ عندِي

ويبدو واضحا تاثره بالشعــر الانــدلسى . وبموشحــة مظفر بن ابراهيم العلانى الاندلسى المعروفة :

كالى ياسحب تيجان الربى بالي

وببيت خاص منها وهو :

طولـــي يـا ليلـة الـوصل ولا تنجلـــي
واسبلي ستـرك فـالمحبوب في منــزلـــي

ومن قصائده ايضا على هذا النمط . قصيدة « انشودة الفجر » و « يا نجوم الليل » و « لا ابالى » ولعل هذه التجارب

التى قام بها فى الشكل كان سببها شحذ القريحـة ، وحب الرياضات والتجارب كما صرح هو نفسه فى مقدمة « شوق وذوق » . وقد كتب اناشيد كثيرة على هذا النمط منها « نشيد العلم » ، و « الجلال والمجد للوطن » ، ونشيد « الكشافة » ، ونشيده فى ذكرى اعلان حقوق الانسان » وغيرها كثير .

وقد كان نشيـد « الجـلال والمجـد للوطن » غريبـا فى شكله ، اذ نسجه على غرار موشحة قديمـة لسراج الديـن عمر الكتانى الحلبى ، مدح بها المنصور ملك حماه ومطلعها :

جِسْمِي ذوى بِالكَمَدِ

والسَّهرِ ذِي شَنَبِ كالبردكالْحَبَبِ جُمانِي

والوصْبِ مِنْ جَانِي

ونشيد سيدى مصطفى الذى نسجه على غرار نشيد الكتانى مطلعه :

الجلالْ والمجد لِلْوطَنْ

والاخْلاصْ في السِّرِّ والعَلَنَ

طابت لنا. شمس المنى. تقتادنا ترعانا

ما اجمل. ما احسن. فيها المني تلقانا

وفى الحقيقة ان هذه التجـارب فى الشكل لم تكن موفقة دائما ، لانها لم تات عفوا ، ولم يفرضها اقتناع الشاعر بمواضيع تستوعبها ، بل كانت مجرد نظم متعمد للتجربة والاختبار .

الـــوزن والقافيـــة :

ومما يتصل بهذا الموضوع اعتناؤه بالوزن والقافية ، فهو ليس من الشعراء الذين يكتبون كما جاء ، ولكنه شديد الشغف باختيار ما يطرب من الوزن . وما يهز من القافية . كما نجد ذلك في قصيدته التي شاعت ، والتي القاها بمناسبة مؤتمر الحرمين الشريفين بالخلدونية (1946) :

تحيـاتُ شـوقٍ لا تعـــدُّ ولا تحصــــــى
من المغربِ الادْنَى الى المغربِ الاقصـــى

وقد اخذت هذه القصيدة مكانا مرموقا في ذلك الوقت ، وحفظها جل شباب الزيتونة المعتنين بالادب ، وقد قال ان مطلعها مستوحى من قوله تعالى « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى »

وقد عارض هذه القصيدة في ذلك الوقت شاعر مغربى وهو احمد العلوى بقصيدة يقول في مطلعها نشرت بجريدة الاسبوع :

تحيـــــات ود لا تمـــوت ولا تفنــــــى
مـن المغرب الاقصى الى المغرب الادنـــــى

وكما كان يعتنى بالوزن والقافية ، كان يعتنى بما يسمى في البلاغة ببراعة الختم كما في قوله في نهاية قصيدة عيد النصر يخاطب الزعيم :

وائتلق يا هلال في مفرق الـخضـــــــراء

وكـــن بـــدرهـا « التمـام » المكمـــــــل

وفى نهاية قصيدته الى الشرق فانظر التى كان متاثرا فيها بسورة مريم عليها السلام حتى كادت كل قوافيها تكون مقتبسات قرآنية :

هناءً لـكمْ واحتفاءً بكـــمْ يفوقانِ عطرًا ومسكا شذيـــًا

وكذلك قوله فى نهاية قصيدته « البعث » وهى التى عارض بها الدعدية :

قد فاح في الارجاءِ سوسنُهـَا والآسُ والنسرينُ والـورد

الى غير ذلك من نهايات قصائده . وهذا النوع وان كان من المحسنات البديعية التى تعاب على من يعتنى بها فى الوقت الحاضر ، الا انها اشياء جميلة عندما تاتى عفوا لخاطر غيـــر متكلفة .

ومن الاشياء الاخرى التى كان يعتنى بها اعتناء كبيرا ، استعمال جملة من الافعال فى بيت واحد تاتى متابعة الواحد تلو الاخر . ولهذا ناحيتان فى مجال الذوق : الناحية الاولى ما فى تعاقب الافعال وراء بعضها من جرس موسيقى ترتاح له الاذن ، والناحية الثانية هى بما يوجده الفعل فى الجملة من حركية وحيوية ، وهو ما عبر عنه احد النقاد بانسانية الفعل ، فهذه الحيوية ترتفع به على جمود الاسم ، وتجعل له من الحياة والقوة فى الاستعمال ما يثبت مكانته ، وذلك بما يوجبه الفعل نفسه من التصور ، وما يبعثه فى الذهن من تشخيص للاشياء

التى يتحدث عنها الشاعر . واعتناء شاعر باستعمال الفعل ليس اعتناء من ياخذ الكلمة ويسد بها فراغا ، ولكنه اعتناء المتبصر القدير الذى يؤلف من مجموعات الافعال صورة متميزة الاطار بما لها من ظل ولون وحركة . والامثلة لهذا الاستعمال كثيرة فى قصائده ، فمن ذلك قوله :

واعتـــزم واقتحـــم وســـد

واغتنم واسعد وعش ظافر ابنيل الؤمل

فهـــذه التشكيلـة مـن الافعـال تؤلـف موقفـــا واحـــدا متضامنـا ومتكامـلا ، فالعـــزم يتبعـــه الاقتحام والاقتحام يتبعه التملك والسيادة ، ثم اتى بعد ذلك تنعم الانسان بما تحصل عليه بجهده وسعادته بنجاح مؤمله ، وهى نتيجة طبيعة ومنطقية ، ومن الامثلة الاخرى على شغفه باستعمال الفعل ، قوله فى قصيدته المغناة « حورية الموج » :

وارم بِى للمـوجِ وارْجـعْ فالتـقِـفنِــــي

واحتضِنِّــــــي واعْـتَـنِقْـنِـــــــي

واختطِفْنِي والتـقِمْنِـي . وارتشفنِـــي

والمثال الاخير من قصيدة بعنوان « صقر العرب » ، كتبها فى مدح المغفور له عبد العزيز ال السعود . حوالى سنة 1942 م ، وهى لم تنشر لا بالديوان الاول ولا بالثانى ، وقد اعاد كتابتها سنة 1952 . وكتبها بخط جميل واهداها للملك فيصـل ومطلعها :

في جبيـن الشمس مـن فـوقِ المحجُبْ
مشـرقٌ مجدُك يـا صقـر العَرب

والبيت الذى نريد الاستشهاد به هو قوله :

وابـق واسعَـدْ واعتـزِمْ وادْعُ لنَـا
فـي حمى الـكعبـةِ واسجـدْ واقتَـرِبْ

وسوف نتعرض لهذه القصيدة فى مناسبـة اخـرى ، ونستجلى ما فيها من معانى سامية ، وافكار مؤمنة بما للرجال العظام من قيمة كبرى . وهو دائما فى امثال هذه القصائد لا ينظر الى الاشخاص بقدر ما ينظر الى المبادىء التى يعملون من اجلها .

قصيـدة النثـر :

بقى الان نوع اخر من انواع شكليات القصيدة ، وهو ما يسميه البعض بالشعر المنثور . وان كنا لا نستصيغ هـذه التسمية ، لان الخاصية الوحيدة للشعر هى الايقاع . وجل ما يتكل عليه هذا النوع هو اللغة الشعرية ، وهى ليست كافية فى حد ذاتها لجعل هذا القول شعرا . لانه نثر فنى وخواطر مجنحة تتحكم فيها موسيقى الكلمة وما تعطيه من طرب داخلى .

وبناؤها العضوى ليس له قانون يتحكم فى سيره . والشعر موهبة وصناعة قبل كل شىء ، والذى تجاهل هذا يتجاهـل كنـه الشعـر .

بيـن بحـر وجبـل :

وقطعة بين بحر وجبل التى نظمها الشاعر ببلدة حمام الانف الجميلة ، واستوحاها من طبيعتها ، تخضع الى صياغة

غايـــة فى الابـداع . فهـى فـى التوزيـع تشبـــه الشعر الحر ، اذ يبداها الشاعر بشكل مسطح ثـم تنـداح تدريجيا مثلما تنداح دائرة من الماء فى بركة ساجية بفعل القاء حجر او حصاة . وتبدا القطعة بمقارعة البحر للجبل ، يذكر كل واحد محاسنه ذاكرا مساوئ الاخر فى لغة شعرية رقيقة شفـافـة :

الجبــــل :

كيف اتخذْتَ من لينك وانْبسَاطِ وجْهِك
وابتسَامِ اساريرِك المزيَّفِ
احبولةً تُغْرِي بِها ضحَايَاك من الناسِ والاشياءِ
وتغدُو باستسْلامِك إليْهِمْ غدر اللِّئَامِ
فتبتلِعُهُمْ كالأسْرارِ الدفينةِ والجُثَثِ الهامدةِ
حيثُ تكتُمُ انفاسَهُمْ الى الأبَدِ
البحر أيّ غرورٍ يلعبُ فوق ظهرِك الاحدبِ الأخشب
ومناكِبِك المتخدّدةِ الجَرْبَاء
وانت تنظرُ الى الارضِ نَظَرَ النَّاكِرِ للجميلِ
كانَّك تريدُ الانفصال عنها والدّوران مع الافلاك

وينتهى هذا الحوار الطويل بنهاية تحمل ابعادا كبيرة ، وذلك حيث يقول الجبل للبحر :

انت قطـرة مـن مـــاء.

فيجيبه البحر بقوله :

انت ذرة من تراب.

شـاعر ومكـافــح :

في مجموعة قصائده التي نظمها في الاربعينات ، نـراه يشترك في كفاح شعبه المظهد ، المسلوب الحقوق . وقضايا هذا الشعب لا تنعكس بشكل عابر في شعره ، وانما هي موضوع رئيسي فيه . فنرى في هذه القصائد ثورة على الظلم ، ودعوة دائمة الى الوحدة القومية ، وكره الى حد الضغينة للاستعمار :

أرى صائد الغرب يدني لَنَـا من الطّـعم لونا لذيذًا شهيّــا
يُلاعِـبُ فينَا حُلُـوم الصّغَـارْ ويخدع منا الضعيف العييـا
فيـا ويحنـا ان وثقنـا بـــه واما اتخذنـا عـدوا وليـا
وانـا وقفنـا بـأعتـابـــه نطالب بالحق فظا غَـوّيّا
نعيد الذِي قال في جهـرةٍ ونَنْسى الذِي في الطوايا خبيا

وفي ذكرى عيد العروبة الاول نراه يقول :

كالغربِ حين تالبّتْ أعجامه وجزى ايادي ربه كفْرانـا
يعطيك من طرفِ اللسانِ حلاوة واذا اكشفت وجدته ثعبانـا
يـا غـربُ ويـلكم اذا لـمْ تنصفُــوا
فـالشـرقُ يـرصدُ قائمـًا يقظـانـا
فكِلـوا لاربعـة كبـارا أمــركُـمْ
والله اكبـر وهـو أعظـم شـانـا

وفي قصيدته التي نظمها في عيد العروبة الثاني سنة

1947 نراه يقول :

حَلّ وغدٌ واغلٌ في حرمِي ورعَى حول الحمَى واستلبَا
وأعارتْهُ الليالي فــرصــةً فتمطّى نَحْوهَا واعتصبَا
ومضى يَخْتَــالُ تيهــًا في الحِمَـى
مَــرِحَ الأعطَـافِ ينــزُو طَــربَــا
كذّبته نفسُه مــن خُــدُعٍ بالمنَى ويلٌ لها ما أكذبَــا

وفى تونس ، عندما احتفلت حكومة الحماية بمرور نصف قرن على تاريخ الاحتلال ، نراه ينظر الى ذلك اليوم نظرة كلها حزن واسى عميق ، ونرى الكلمات تستحيل فى فمه الى جمرات حارة تاكل حروفه وتقتات من اعشار قلبه . ونشعر حقيقة بموقف الشاعر المنكوب فى عزته والمعذب فى وطنه . فيقول فى عاطفة صادقة : مخاطبا ذكرى يوم الاحتلال لبلاده تونس

يا ايها اليوم الفظيعُ الانكــدُ قبحا لوجهِك فهووجهٌ اسودُ
ســاعــات نحسِك خلّفتْ بقلوبِنَـا
غصصًا على طول المدى تتجَـــدّدُ
يــا ليت شمسك بعدهَـا لا ترتقِـي
أفق السمــاء وليت ليلُـك سـرمَـدُ
يــوم طــويلٌ شــؤمه ما تنقَضِــي
نـكبــاتُـهُ ودمـاؤهُ مــا تنْفَــدُ
يوم به انطفات منَارة عزنــا ومحا كرامتنا الزمان المفند

وفي هذه القصيدة ظلال قاتمة ، وهي تذكرنا بقصيدة علي بن الجهم حينما سجنه المتوكل والتي يقول في مطلعها :

قالوا حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرٍ
حبسي وأيُّ مهنَّدٍ لا يغمدُ

يصدع بالحق :

وعندما كان الحديث عن الزعماء القوميين همسا يفر به المتكلمون الى ظلمة الاركان سرا نجد شاعرنا سنة 1939 يتوجه في ايمان صادق وعاطفة حقيقية مخاطبا الزعيم الحبيب بورقيبة :

سلامُ اللهِ للبطلِ المفدّى وتسليما لمذْهَبِهِ وعهداً

ويتحدث عن خصاله ومضاء حزمه وشدة مقارعته يقول :

أشدّ من القضاءِ اذا ترامَى وامضَى من شَبَاة السيفِ حدا
واقول في مجال القول قيلا واكثر في خصال الفضل عدّا

ثم يتحدث عن مواقفه الصادقة وكفاحه مع اصحابه قائلا :

لانت وصحبك الذهبُ المصفّى
يزيدُ تألقًا ما ازدادَ وقْدا
لقد أبليتُم صبرًا وكنتُمْ
لشعبِكُمْ امام البَغْي سَدّا

ولاقـــى منـكُـمُ الطـــاغي خصوما
شـداداً فـي سبيـلِ اللهِ لـــد اً
وقد تـم فـي مـواكبكـم نسـاء
وشبـانـاً ومشيخـةً ومـــرداً
وكنتـم فـي مقـدمـة الضحايـا
ولـم تتهيبُـوا الخطـر الأشـداَ

وهو من خلال ذلك يؤمن بان الشعب الذى لم يضح بدمائه، لا يمكن له ان يتحصل على حريته . فالدم المهراق هو المهر الذى يسديه كل متعلق بالكرامة . وهو القربان الوحيد المقبول على مذبح الحرية لمن يريد ان يتحصل عليها :

الا ان الدمَ المهراقَ مهـرٌ لكل كرامةٍ في الأرض تهدَى
مقدمـةٌ ضحيتـه عجـابٌ به القربان كم اغنى وأجدَى

وفى هذه القصيدة التى سماها الشاعر « قربان الدم » ، رفض لكل ما جاء به الغرب من حضارة ومدنية فى سبيل قتل الروح القومية ، فى دعواه انه جاء يحمل لنا مشعل التقدم ويرفعنا من وهدة الجهل والتاخر . فترى الشاعر يقول فى اصرار الرافض لكل ذلك :

وقوم انشأوا التمدين فينـا الا بُعْداً لِذَا التمدين بُـْداً
ضباع اطلقت تغزو قطيعـا ويعبث فيه تنكيـلا وعمـدا
وظنوا تونسـا لهم تـراثـا لقد جاؤوا من الاشياء ادا

وفيها ايضا اثارة لسياسة الحزب الجديد فى بذل الدم ، وايجاد الروح الفدائية فى الشعب ، وهو ينعت الدم المضحى به « بالدم المبارك » ، والضحايا الذين ماتوا فى سبيل الوطن بالضحايا المقدسين . ويدعو فى آخر هذه القصيدة الى المواظبة والوقوف الصامد فى وجه المعتدى الغاصب . ويظهر فى آخر هذه القصيدة شىء كبير من هذا الايمان المتغلغل فى قلب الشاعر بان يوم انتصار شعبه لابد آت وعن قريب وقريب جدا . وهذا فى الوقت التى كانت فيه جميع الطبقات يخيم عليها اليأس ، وليس هناك الا نفر صغير عندهم بذور من الايمان ، وله مسرب نور ينفذ منه الى سجف المستقبل ليرى ان للظلم نهاية . وان قوة الشعب تحطم كل قوة مهما كانت هذه القوة عاتية وجبارة .

وشاعرنا من هذه الفئة التى لم تخضع تحت ضربات القوى ، لانه يرى ان قوة الباطل مهما عتت لا تغلب منعة الحق ، ولذلك تراه يقول فى ايمان وعزة وكبيرياء

فَلا يُحزِنكُم منهم بَقَاءٌ   فيومهم قريب العهد جـدًا
وشدوا في مواقفكم بِصبرٍ   فقد بَلَغ الزمانُ بنَا الاشَدَا

وهو يشير بذلك على طريقة استقائه من الثقافة العربية الى رسالة عثمان الى على بن ابى طالب عندما حوصر فى بيته « لقد بلغ السيل الزبى ووصل الحزام الطبيين وطمع فى من لم يكن يدافع عن نفسه .

فان كنت ماكولا فكن انت آكلي
والا فادركني ولما امزق

وكان يقرن دعوته الحارة من اجل المطالبة بالحق المغتصب ، بدعوة العروبة وضم الشمل العربى مع قوم لهم نفس تاريخنا ولغتنا وتقاليدنا . لذلك لا ينفك ينادى بالالتفات الى الشرق كما فى قوله :

الى الشرقِ فانظر وخذْ سمتَه
ونـاولْ بنِي العم ودًا سخِيًّا
الى مهبطِ الرسْلِ اجدادنَا
الالى علمُوا الكون وهو صبيًّا
وما الغرب فِي كل ما يدعِي
من المجدِ والفخرِ الاعيِيًّا
وما كان في علمه مثلَنَا
وفي فنِّه مُلْهَمًا عبقرِيًّا

او كما فى قوله فى قصيدته « قلب الجزائر » :

فابْسُطْ يدا لبَنِي ابيك مُصافِحًا
وخُذِ المحَبَّة واعطِ وادْفَعْ واجْذِبْ
فهم الاعِزةُ من سلالَةِ يَعْرب
نفدِي بمهجَاتنَا سلالَة يَعربِ

وهو يعتز بعروبته ، ويرى ان العرب قوة لا يمكن اغفالها حاضرا او مستقبلا . وان لهم من مجدهم ما يدفعهم الى القمة :

لا تقولي انت فردٌ اعــــزل   ان لِـي نَـابا وعنـدِي مخْلَبـَا
ان لِـي خَيْـلاً عرابًا ضمرًا   تحمل الحمس الـكماة العربا
وورائي كل قرمٍ بـاسـل   عرف النخوةَ من عهدِ الصِّبَا
من جدود عدلوا لمَّا انحنـى   لهم الدهر فساقوا الحقبــا
من جدود وهبوا الدنيا لــه   مركبا فاقتـاد ذاك المركبـا
اورثوه المجد حِلاً والمروءا   ت يعتـز بهـا والحسبـــا

وهذه اللهجة الخطابية الحادة ، نجدها فى كثير من قصائد تلك الفترة وبالاخص فى القصائد التى كتبها بمناسبة اعياد العروبة . فخر لا نهاية له وبعث لامجاد قديمة ما كانت لتضيع لو عرفنا كيف نحافظ عليها ونجرى على سمتها . وقد كنا فى مناسبة من المناسبات وانا اقرا عليه قصيدته فى فلسطين التى نظمها بنفطة والقاها بمحفل هناك سنة 1948 وهى :

بنـاتُ الـديَـاجي افْصِحـي واجـبِينـــا
فقـدْ طَـــالَ للصبْحِ المنيـرِ تـرَجِّينَــــا

وحين وصلت فى القراءة الى هذه الابيات الحماسية وهى :
أحق تراث الرسل نهب مقسم   أحق غزا جيش العدو فلسطينا

الى ان يقول عنها :
فــلا اكلـوا فيهـا سـوى السحب مـاكــلا
ولا شـربـوا الا حميمـــا وغسليـنـــا

ضحك وقال : « انها نفس الاديولوجية التي نادى بها هناك بعض كبار الساسة من العرب ، وعد ووعيد ولاشيء غير الكلام ، ولو كنت في الوقت الحاضر لما قلت هذا . وكان ذلك في سنة 1966، وقد كان الوعي الحاد بما عليه وطنه من سيطرة وعبودية يكاد يكون العمود الفقرى لما كتبه فى الباب ، وكان من العادة ان يبدا الشاعر فى مراحله الاولى بشعر الغزل واحلام الشباب التى يتلهى بها عادة الصغار ، الا اننا عندما ننظر الى الشعر الذى كتبه سيدى مصطفى فى مرحلته الاولى ، نرى ان وعى الكبار بما كانت عليه تونس بعد الحرب العالمية الاولى مـن التدهور الاجتماعي والسياسى ، وثقل الاستعمار المسيطر على مقدراتها ، كان هو نقطة الانطلاق لشاعرنا فى بداية كتابته للشعر . عندما بدا ينشر بواكير انتاجه وهو ما يزال بعـــد بمدرسة السلام القرآنية .

ففى جريدة الوزير الصادرة بتاريخ 8 جويلية سنة 1924 نجد له قصيدة نشرها وعمره ثلاث عشرة سنة . قال صاحب الوزير فى تقديمها « ترقرق وضى الشعور بين ثناياه ، فحرك وتر الاحساس شدوا وقد اثبتناه على علاته دون تحويل او تغيير وعروض هذا القصيد من المتقارب يقول فيه :

علامَ تأخّرُنَا في ازْدِيَـادِ وضلّ علينـا طريق الرشَادِ
متى تجتَنِـي العزّ هذي البلاد وتحيَا مَـتى ستنَالُ المـراد

ورغم اننا نسمع فى هذه القصيدة صدى لاصوات قوية ، واشعارا كانت سائدة فى ذلك الوقت اغلبها شكوى وتذمر من الحال التى كانت عليها البلاد ، الا ان هذا لا يمنع ان نرى فى شعور هذا الشاعر الصغير بعضا من اليقظة ، فى سن كان يمكن ان يكون فيها غارقا فى احلام اليقظة . وتهاويل الشباب ،

مما يزخرفه لامثاله الخيال من صور مشرقة تارة ، وقاتمة تارة اخرى ، وقد كبر هذا الوعي معه وترعرع هذا التطلع في قصيدته القيروان التي كتبها سنة 1930 بمناسبة الاحتفال الالفى لتاسيس القيروان والتى مطلعها :

من وراءِ القرونِ والآمَادِ في الدهُورِ الشواسِـعِ الابْعَاد

ففى هذه القصيدة يتحدث عن امجاد القيروان ، وعن افريقية فى لغة قوية سلسلة ، مستشيرا الماضى ، مستشهدا بالتاريخ ليبين ما كانت عليه هذه البلاد من منعة ومجد وحضارة. وبما بناه رجالها من مدنية باذخة ، ويصور ذلك فى اسلوب قصصى بارع كما فى حديثه عن فتح الاندلس جنة الدنيا حسب تعبيره . وعن طارق وخطبته ، وفتح صقلية ، ولعل من آياتها التى جاءت عفوا هى جمعه لصفوة من رجال القيروان المشهورين فى بيت واحد عندما كان يتساءل :

حدثنا عنها فان لذياك الحد يث الجميل غرثي صوادي

وعن ابن الجزار وابن رشيق

وابن هانيء والشاعر بن اياد

وفى آخر تلك القصيدة نراه يتحسر عن تلك التى ذهبت بالمجد ادراج الرياح . ويتساءل هل ترى سوف ترجع وتستعاد .

وقد انشد هذه القصيدة الشيخ الفاضل ابن عاشور نيابة عن الشاعر فى الحفل الذى اقيم بالقيروان ، وكانت من احسن القصائد قبولا . حتى ان الشيخ سيدى ابراهيم خريف نسخها بخط يده .

خريف لا أنساه :

كان لاواخر سنة 1945 معنى جدير بالوقوف عنده ، وذلك انه في خريف هذا العام نزل بين ظهرانينا سيدى مصطفى ، وكان مجيئة فى هذه المرة يختلف عن غيرها فى المرات الاخرى . اذ انه اراد بما طبع عليه من حب للاطفال ان يبدل نوع معاملته التى كان يعاملنى بها ، وان يفتح عينى على عالم كنت متطلعا جدا لمعرفة اسراره وانا اقف خلف النوافذ متشوقا . هذا العالم هو عالم الادب الذى كان قدرنا جميعا ابناء هذه العائلة التى لم تجد وراءه محيصا ولا منه مهربا . وكان شاعرنا اذا نزل بنفطة ، ياوى الى مقصورة فى سقيفة منزلنا الذى صمم على شكل عتيق ، وهو المنزل الذى ولد به شاعرنا بنفطة ، وسجى باحد بيوته قبل ان يوارى جثمانه التراب ، وكانت شبابيك هذا المنزل تفتح على شوارع القرية الضيقة ذات المنافذ العديدة . وكان في المساء عادة يجلس خلف احدى النوافذ حيث يراقب الغادرين والرائحين ، وهو يطالع او يكتب . وعندما كان يرين المساء كان ينادينا نحن اطفال ــ الحوش ــ ويصحبنا معه الى الوادى او الى غابات الواحة ، الى زيارة ضريح جدنا الذى كان غير بعيد من منازلنا .

وفى اثناء ذلك يحادثنا ويفتح امامنا مجالات للمناقشة على قدر ما تستطيع عقولنا الصغيرة ان تستوعبه ، ويزودنا بالنصائح التى ما كنا لنجدها عند غيره ، وينادينى انا « بيامحمد » ، وهو الاسم الذى كنت انادى به من طرف جميع اسرتنا . وطلب منى فى مرة من المرات ان آتى بقلم ودواة ليملى على شيئا ، فاملى على الابيات التالية وهى من معلقة لبيد بن ربيعة العامرى :

انا اذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمةٍ جشّامَهَــا
ومقسمٌ يعطى العشيرة حقهـا ومقَذ مـِر لحقوقها هَضَامُهَا
فَضْل وذو كرم يعينـــي عن النـــدى
سمــح كســوب رغـــائب غنامهــــا
من معشـر سنت لهم اباؤهـم ولـكل قوم سنـة امـامها

وكان لهذه الابيات معنى اكبر من عقول الصغار . وزيادة على الفاظها الصعبة التى لا يمكــن لطفــل فى العاشــرة ان يستوعبها وان يستسيغها . ولكنه كان دائما هكذا فى اختياره للشعر بالنسبة للصغار ، يبعد فى النوعية ، ويتوخى الصعب الغير متداول . وكان يجذبه المعنى السامى الذى كان يشتمل على ما كانت تجيش به نفسه من حب للمجد والافتخار بالمآثر العربية القديمة ، التى ما انفك يتغنى بها فى شعره ويفرد لها القصائد العديدة وهكذا احب ان يغرس فى نفسى ، هــذه المبادىء التى عاش ينادى بها طوال حياته . التى قضاها منقبا بيــن الاسفــار والكتب القديمــة ، مستخلصــا اهــم مــا فى الادب العربى القديم من معانى السمو ، والصدق ، والايمان بعراقة هذه الامة وعتقها .

ومرت الايام ولم يبق من هذه القصيدة الا نغمها وجرسها فــى اذنــى . امــا معانيهــا فلــم اكــن اتصورهــا البتــة . ومن ذلك الوقت ، بدا يفتح امام عينى النوافذ المضيئة على الشعر العربى خاصة . وعرفت على طريقــه شعــراء المذاهب كالكميت ، والسيد الحميرى ، وكثير عزة فى تطرفهم لاهل البيت . وشعراء الحجاز كعمر بن ابى ربيعة، وابن قيس الرقيات، والعرجى ، والاحوص فى افتتانهم وتشببهم ، وشعراء اليتيمة

كابن سكرة ، والواسانى ، وابن الحجاج وغيرهم فى تهتكهم ، ومجونهم . ومن ذلك الوقت بدات استخلص لنفسى الاشياء التى استسيغها واميل اليها وذلك بهديه واعانته وتوجيهه .

جيمية ابن الرومى :

ولعلى لا انسى سنة 1947 ، وانا بمدينة قفصة اذ بعث الى بكتاب « العواصف » لجبران خليل جبران ، وبداخله جيمية بن الرومى التى رثى بها الشهيد العلوى عند ما قتله العباسيون ببغداد ، والتى يقول فى مطلعها :

امامـك فانْظُـرِ أيَّ نهـجيـــــكَ تنهَــــجُ
طـريقـــانِ شتّـى مستقيــمٌ واعـــــوَجُ

كانت هذه القصيدة شجية تسيل رقة وعاطفة . وكنت فارغ القلب فصادفت هو فى نفسى ، وحركت فى داخلى ارق معانى الشفقة والرثاء لهؤلاء الناس الذين وقع اضطهادهم وتشريدهم على يد فئة من اهلهم وابناء عمومتهم . هذه القرابة التى جعلتهم يتطاحنون من اجل الحكم ، ويتفانون فى معارك دامية لا بداية لها ولا نهاية :

وشائج ارماح تقطع دونهـــا   وشائج ارحام ملول قطوعهـا

وكان سيدى مصطفى كثيرا ما يذكرنى بابيات هذه القصيدة العامرة ، ويشرح لى صور التهكم والهجاء التـى وردت فيها ، مثل قوله عند ما يتحدث عن رغد العيش الذى ينعم فيه العباسيون وشظف الحياة التى يعانى منه بنو هاشم

فى تصوير حى لا يقدر على مثله الا ابن الرومى الذى اشتهر بتتبع الجزئيات . واستنفاد ما وراء الاشياء من صور فتراه يقول مخاطبا العباسيين :

تمشُون مختالين في حجُراتِكُم
ثقالَ الخطَى اكفالُكُم تترجرجُ
وليدُهم بادي الطَوى ووليدُكم
من الريفِ ريَان العظامِ حذاَّجُ

وقد كان ميل سيدى مصطفى للشيعة ظاهرا ، وحبه لهم قويا ، فكنت تراه دائما منقبا عن شعرهم . مدونا لاهم العيون التى وردت فى قصائدهم . غير انه كان يكره مبالغات ابن هانىء الاندلسى وكفرياته التى تجاوزت الحد فى كثير من الاحيان . برغم اعجابه بديباجته ، وقوة عارضته ، ومتانة اسلوبه

ارتباط متين :

وكان ارتباطي به بعد ذلك قويا ومن سنة 1949 الى سنة وفاته فى 1967 لم اعد افارقه الا عندما اسافر الى الجريد لاقيم بين اهلى فى الصيف . وما زال يدلنى على منافذ الذوق والحس ، ويفتح امام عينى مغلقات الاشياء ومعمياتها ، حتى استجابت قريحتى لقول الشعر وكان ذلك فى سنة 1949

باكورة نبوغ :

كنا اذ ذاك ندرس معا ديوان شوقى . وكانت قصيدته

« سلواقلبى » منشرة يتغنى بها كل عشاق ام كلثوم فى ذلك الوقت . وكنا معشر الطلبة الزيتونيين فى ختام السنة الدراسية ينظم كل من له مقدرة على الشعر قصيدة يمدح بها شيوخه . نظمت قصيدة من اجل هذا الغرض وقرأتها فصادفت فى ذلك الوقت من شيوخى ومن الطلبة الزيتونيين قبولا كبيرا .

وكنت متاثرا كعادة الطلبة المبتدئين بشوقى وقصيدته « سلوا قلبى » ، فما كان من سيدى مصطفى الا ان اخذ القصيدة التى كتبتها ونشرها بجريدة الجهاد بعنوان « باكورة نبوغ » ومطلعها :

سلُوا القلبَ الذي كتَم الودَادَا
وأخفَى الشوقَ واحتملَ البِعَادَا

سلُوهُ عن غَمَامِ الافقِ فيهِ
شعاعُ الشمسِ يتَّقدُ اتقَادَا

سلوا ذِكْرَاهُ عن ماضٍ بعيدٍ
وايامٍ بهَا نِلْنَا المُرَادَا

وقد كان تاثرى بسيدى مصطفى فيما كتبته من الشعر ظاهرا . حتى انى فى ذلك الوقت لا اجد عندى الا ظلا لما كان يكتبه هو . وبقى ذلك الى سنة 1952 عند ما بدات حركة الشعر الحر تنمو وتتطور ، فكتبت اول قصيدة على النمط الحر نشرته بمجلة « الندوة » عنوانه « قيود » ، فى فترة حاسمة من تاريخنا القومى . وكان ذلك القصيد اشارة الانفصال بينى وبين عمى . واصبحت لا احمل من آثاره فى خلدى الا ما غذانى

به من التوجيه السديد ، وما علمني اياه من مؤثلات شوقه ، ومبدعات ذوقه ، وما زلت اذكر الصورة التى اهداها الى موشحه بهذين البيتين :

يــا محـي الـديـن صِنْــوَروحـــي ويَـــا
زَيْــنَ الشَّبَابِ المُهَــذّبِ الــرّاقِــي
أهديك مِـنْ ظـــلّ صُــورتي شبَـــحـــاً
فِيَـــه سُكُوني وفِيــهِ اطْـرَاقِـــــي

وكان رغم توجيهه لى ، وتعبيد الطريق امامى ، شديد القسوة على ، لاذع التهكم خصوصا عند ما يوقعنا الحظ العاثر امامه فى غلطة فكرية او صناعية ، وكان شديد التتبع للسانى عنه ما اقرا ، وعند ما الحن تراه يردد وزائى فى عتاب جارح : « النحو صنعتنا واللحن عاداتنا » . وبرغم ذلك لم اعدم منه التشجيع والمباهاة والافتخار فى بعض الاحيان . اذ كان كثير الاعتزاز باهله وعشيره ، عطوفا الى حد المبالغة على صغيرهم وكبيرهم .

ادب الاطفـــــال :

وقد كان كتب للاطفال اشياء كثيرة ، ومقطوعات متعددة من الاشعار والاناشيد . فمن القطع التى يتغنى بها اطفالنا فى مدارسنا الابتدائية « بسكلتى » و « نشيد »

هو ذا الفجر فقومي يا طيْــورْ فــردى
وانشدي انشودة الفجر النضيرْ انشـدِي

ونشيد « املئي العين من الافق البديع

ونشيد العلم» حيوا العلم حيوا العلم. شعارنا بين الامم

ونشيد افريقيا الكبرى . ونشيدى الجلال والمجد للوطن واخيرا النشيد الذى يردده اطفالنا كل سنة بمناسبة ذكرى اعلان حقوق الانسان والذى مطلعه :

سلاما لمن بشّرُوا بالأمــــلْ ونادوا لتحيا حقوق الرجل

ومن المحفوظات المدرسية « السمك الشص » و « الليل بالجريد » وزوبعة فى الصحراء » وغيرها من القطع الاخرى .

فصوص النصوص :

وفى سنة 1984 فكر فى تاليف كتاب مدرسى لتلاميذ السنة الثانية من التعليم الزيتونى . وقد كان منهجه فى ذلك اختيار النصوص القديمة من الادب العربى وشرحها شرحا لغويا . ثم طرح موضوع انشائى حول المحور الذى يختاره . وقد ارتبط فى هذا الكتاب بالجانب اللغوى اكثر من ارتباطه بالجانب البداغوجى ، وبمحاور الحياة اليومية المعاصرة التى تعرف الطالب باوجه الحياة المختلفة ، وتعطيه من ضروب التعبير المتنوعة ما يجد مثله فى واقعة اليومى ، فاكثر النصوص التى اختارها فى هذا الكتاب . قديمة صعبة اللغة تتحدث عن ماثر عربية تغيرت نظرة الناس اليها فى الوقت الحاضر . وقد غلبت طبيعته الفنية ، فى كتابه الذى سماه « فصوص النصوص » ، على بداغوجية التدريس وطرقه ، فجاء كتاب لغة يعلم الفصاحة وطرق البيان ولكنه يبتعد بالتلميذ عن محيطه

الذى يعيش فيه . ولعل هذه الاشياء جميعها جعلت لجنة النظارة فى جامع الزيتونة ترفضه ، فاثر ذلك فى نفس الشاعر تاثيرا كبيرا ، خصوصا وقد قوبل كتاب اخر دونه فى المستوى وهو « كتاب النصوص المفسرة » للشيخ العروسى المطوى ، وقد كان رد فعله هو المقال الذى كتبه بجريدة الصباح .

« منتقدا فيه الكتاب المقبول من طرف اللجنة وهو كتاب المفسرة لجماعة من الاساتذة . وقد كان نقده فى ذلك لا يخلو من وجاهة ، خصوصا احصائيته للاخطاء اللغوية المهولة . الا ان رد الشيخ العروسى المطوى وهو احد المؤلفين كان قاطعا اذ وصفه بانه غير منهجي وانه مبني على الذوق ، ولذلك فهو لا يستحق الرد عليه ، والالتفات اليه مرة اخرى اذا اخذ القلم وعاود الكرة مرة ثانية .

قصص الاطفـــال :

وقد نشرت له عدة مجموعات من قصص الاطفال ، وانا لا اعلم انه كتب للاطفال سوى قصة واحدة هى «صابغ البحر»، التى نسج حوادثها حول اسطورة جنوبية هى خرافة « على بن قاصد النيل » . غير ان الشركة التونسية للتوزيع نشرت له عدة قصص اخرى وهى « الحاج زيان » و « بابا على » و « خو القهواجى » و « الثالوث » و « الثبات على المبدا » . و « عم خضير البواب » . ورغم ان هذه القصص قد نشرت تباعا بجريدة « الزيتونة » و « مجلة المباحث » فى الاربعينات والخمسينات تحت عنوان « صور من الحياة » ، ولم توضع فى قالب قصصى للاطفال ، غير ان صياغتها البسيطة وحوادثها المستمدة من صميم المجتمع التونسى ، جعلتها صالحة بان تكون من كتب الاطفال . ولا عجب فى ذلك اذا كان سيدى مصطفى

ميالا الى البساطة يحاول دائما ان يكون مفهوما من جميـــع الناس .

الصداقة شعر الحياة :

هناك كلمة مشهورة للفيلسوف اليوناني « فيثاقورس » تقول « الصداقة هي شعر الحياة وما عدا ذلك نثر » . ونحن نستشف من وراء هذه الجملة اسرارا انسانية لا نهاية لها هي لو شئت اسرار الوجود البشرى فى تلاحمه وتعاطفه وتقارب بعضه من بعض . وفى حياة شاعرنا سيدى مصطفى خريف ، نجد هذه العاطفة تكبر وتنداح حتى تكاد تغطى ارضية حياته . فهو من جهة ، الرجل الذى لم يتزوج لانه يرى فى الزواج قيودا هى فوق طاقته وحدا من حريته التى اتسعت له حتى اصبح يعيش غريبا . وخوفا كبيرا من انجاب الاولاد لانه ينظر بعين بعيدة للمستقبل . ويشعر ان حياته ليست طويلة لكثرة ما تداوله من العلل ، ومن جهة اخرى ان عاطفته الجامحة تنبو به تفزعه اذا ما احس انه سوف يبقى ايتاما وراءه ، وكان يقول لى عندما يتحدث عن اولاد اخوته « لو كانوا ابنائى حقا لتقطعت اربا مـــن اجلهـــم ، عاطفتى وراءهم ويحمـــد الله ويستشهـــد بقول ابى العلاء المعرى :

وهَـوّنَ ارْزَاءَ الحَـــوَادِثِ انَّنِـــــــي
أصَاحِبُهَـــا وحْـدِي بغَيْـرِ عِيَـالِي
فـدعِنـي واهْـوَالاً امَـارِسُ ضنكَـها
وايَّاكَ عَنِّي لا تقِـفْ بحِيَـالِي ؟

وهو يعنى بذلك الحياة الدنيا .

واحــة الصداقــة :

ولكن اين تراه فر والتجا من وحدته القاسية المريرة . لقد هرب الى واحة الصداقة ووجد فيها نباه ومستقره ، وتجمع حوله من الاصدقاء نخبة لم يتجمع مثلها قط حول شاعر . وكان اصدقاؤه من جميع الطبقات . وهذا راجع الى شخصيته الفذة الممتازة والتى توفر لها من اسباب الجاذبية الشىء الكثير . مع ما له من منطق ساحر وتجاوب مع من يتحدث معه. وتدنى الى مستوى الذين هم اقل تفكيرا وبعد نظر منه ، لهذا ترى من اصدقائه التــاجر ، وبائــع الجرائد ، والعجــوز من الجارات وشبــاب الطليعة من الادباء الذيــن ربما فى بعض الاحيان لا يوافقهم على ارائهم ، ولكنه يتبناها ويدافع عنهــا . وهكذا وجدنا فيه نحن الذين ترسمنا طريقه فى الادب المــلاذ الاوحد ، والرائد الذى قادنا فى طريق شاقــة عسيرة . وقد حاول كل منا ان يعبر له عن تقديره واكباره بطريقته الخاصة . ومن الاشعار التى اتذكرها قصيدة نشرتها فى افريل سنــة 1967 بعنــوان « فى الكــاس بقية » اهديتهــا اليــه وهو على مشارف النهاية ومنها : ـ

انَا مَنْ فجرت فِــي احْــسَــاسِهِــم
جــذوةً بـالنَّــارِ والنـــورِ غَنِيَّــه
ووزنتَ القــول في اقـــــلاَمِهِــــمْ
وفـرشْـتَ الـدَّرْبَ ازهــارًا شَذِيَّــهْ
سوف لا أنسي بـاني في منـــــــابعـــ
ـــك. الثــرةِ بَرّدَتُ يــديَّـــــه

ولا انسى حفلة التكريم التى اقامها له جماعة من الادباء والشعراء بنادى الطاهر الحداد فى صائفة سنة 1965 ، 22 جويلية فى جو كله محبة وتقدير ، وقد كنت شاركت فى هذا التكريم بقصيد عنوانه « لو مر العيد بقريتنا »

لَوْ مَرّ العيدُ بِقَرْيَتِنَـــا ۛ يوما لِيُوزّعَ بشْـــرَاهُ
لسألْت العيدَ بأنْ يبقَـــى حَتّى نعطيه هَـــدَايَاهْ
نسْقِيهِ الشوقَ نغنيهِ الالْحَـــانَ نلوّن ،نيْسَـــاه
نلقاهُ باعينِنـــا بشعـــاعِ الحـــبّ نضيء خَفَـايَـــاه

ولا انسى مشاركة الشاعر الملهم احمد اللغمانى ، التى كان لها صدى كبير فى ذلك الوقت ، لما احتوت عليه قصيدته من المعانى والقيم الخالدة ، والتقدير الـذى مبعثـه الحـب الخالص ، لا المجاملة الزائفة . ومطلع قصيدته :

سَيِّـدِي مصْطَفَـى وشعـرُكَ نَبْـــعٌ
دافقٌ رافـدَاهُ « شَـــوق وذوق »

ومنـه قولـه :

قدْ تذوقْتُ سحْرهُ من زمانٍ يوم كان الهَوَى بِبَابِي يَدقّ
فسبَـانِي منه اختلاجٌ رقيقٌ هو من خفقَةِ الشعاعِ أرقُ
كلّ بيتٍ قرأتُهُ هو للـــوجدانِ . نبعٌ وللاحاسيس دفْقُ
التقى فيه بالاصيلِ من الفـــنّ ِ فاهْفُو لدفْئِهِ وأرِقّ

وكذلك منور صمادح ، وابن الواحة ، والاستاذ فاضل خلف وغيرهم . وقد وقع توسيمه فى هذا الحفل بالصنف الثالث من وسام الجمهورية .

صاحب مواقف :

وهذا كله راجع الى انه لم يكن مثل غيره من الذين يبثون العداوات فى كل طريق ، ويسعون بين الناس بالثلب والنمائم، ويرمون بالحجر كل من يخالفهم فى الراى . بل كان افسح الناس صدرا ، واكثرهم حلما ، والطفهم عند ابداء الراى معارضة . فكنت تسمعه يقول اذا خالفه احد : « من راى ان .. فهل ترى انت » .

ولا تفتح كنشا من الكنشات التى يحتفظ بها ، الا وقرات له الطريف الطريف حول الصداقة والاصدقاء . حتى ان اكثر مختاراته من الادب القديم تحول حول هذا المحور . ومن مدوناته قول النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخالا تلمــــه   على شعث أيّ الرجال المهذب

وكان كثير الترديد لهذا البيت ، وينعى على الذين يشترطون فى اصدقائهم كل صفات الكمال . ومن هذا الكنش نجد هذين البيتين :

اقبلْ معاذِيرَ منْ آتاكَ معتذِراً   ان برّ عندكَ فيما قالَ اوفجرًا

فقد اسرّك من ارضاكَ ظاهرُهْ   وقد أطاعكَ من عاصَاكَ مستترا

فهو يرضى بالقليل من الصديق ، ولا يهمه ان يبحث عن

تصرفاته الداخلية . لانه يرى ان ذلك امر ليس من شانه . فيكفيه من صديقه حاله الحاضرة . وما عليه من استبشار وحسن قبول عند اللقاء . ولكنه قد يثور فى بعض الاحيان على نوع من الاصدقاء الذين لا تفيد فيهم كثرة المجاملة . ويعى الصديق من مداراة عيوبه فينشد قول ابى الاسود الدؤلى :

شَنِئْتُ مِنَ الأَصْحَابِ مَن لَسْتُ بارحا
أدَامِلُهُ مثلَ السِقَاءِ الْمُمَزّقِ

كل ذلك يدل على ما كان يعيش باعماقه ، ويتوارد فى ذهنه من معان تحوم كلها حول هذه العاطفة ، السامية عاطفة الصداقة :

والمطلع على الادب العربى ، يجد نماذج لا تحد فى مختلف عصوره ، تحوم حول هذه العلاقة كما نجد فى ادبنا الشعبى ، والشعر منه خاصة ، نماذج غنية بالتجربة والمعاناة حول الصداقة والصديق ، من ذلك قول الشاعر احمد بن موسى وهو من مدوناته ايضا :

يَاصَاحِبِي خُنْتَ عِيشِي وَمِلْحِي . ونْكَرْت صُلْحِي
خَسَّرْتَنِي بَعْدَ مَا بَانَ رِبْحِي
يَا صَاحِبِي خُنْتَ مغلي نِكرْتَهْ قَلْبِي جمْرَتَه
رَاحْ الذي بَانْ مِنَّكْ خَسَرْتَهْ
يَا خَايِنْ العهْدَ مَقَاسِي جِمَرْتَهْ وَعَظْمِي نِشْرتَهْ
لِسَانِكْ كِمَا سِنْ مُوزَافْ مِرْحِي

يَا صَاحِبِي فِيكْ خَابُوا الظّنُونْ   عَهدِكْ تْخُونْ
الرّبْحْ مِنْ جُرتِكْ مَا يْكُونْ
أنَا مِثلْ مِنْ طَاحْ فِي وسْطْ جُون   غبَا عَالْعُيُونْ
تِحْتْ الوِطَا صَارْ مرْدُومْ مِدْحِي

شعـر الاخوانيـات :

وسيدى مصطفى فى شعره الوان من هذا النوع ، فيه محبة ووفاء لاصدقائه سواء بقريته نفطة او تونس . ولا يمكننا ان نعرف بعض هذه الصور بدون ان نتعرض لهذا النوع من شعر الاخوانيات . فمن ذلك هذه القطعة التى ارسل بها الى ابن عمه انور الحفني بن محمد الكبير التابعى عند ما سمع به سيدى مصطفى انه بدا فى قرض الشعر ، وهى من نوع الاراجيز التى تستعمل كثيرا فى مثل هذه المناسبات . وهى فى قالب رسالة فكاهية يعنونها شاعرنا بعنوان ـ اليك ـ وسوف لا احذق منها شيئا لانها من القطع المفقودة :

يامرحبا بالشاعرِ الجديدِ   المبدعِ المستَنْبِطِ الفريدِ
زيْنُ الشباب الواثبِ العربيد   وطلعةُ البدرِ ووجهُ العيد
وفخرُ آل التابعي الصيدِ   وآيةُ النبوغ في الجريد
اعنِي بهِ انور ذا التأييدِ   ربّ القوافي مبدعُ القصيدِ
قد دخَلَ اليومَ بلاَ تمهيدِ   حديقةَ التنظِيمِ والتنضيدِ
يحسبُهَا ألعوبَةَ الوليدِ   كأنمَا الشعرُ بلا سَنِيدِ

اوْ هُوَ اكْلُ التّمرِوالثريدِ أوْ صنعة البنـدير في الثلمـود
اووثبـةُ في العقبةِ الـكؤودِ او لعبُ الاعراسِ بالبارود
كلاّ فمَا الشعْر سوَى تغريد ونغمات مثلَ ضربِ العـود
اذا بدتْ فيه صفاتُ الغيـدِ من كَاعِـبٍ مثل غزالِ البِيد
بلحظِـهَا ولفتَاتُ الجيـــدِ وغصن قد ناعمٍ املـــودِ
وبعـدُ يـا أنـور يـاوَدُودي اسمعْ لحُوني واذْكُرْ ترديدي
انّي لفي شوقٍ لـكمْ شديـدْ قلبِي بكم كالعاشقِ العميـد
ما فوق هذا الود من مزيـدِ ودّ جميلُ كجني الورودِ

فهذا الشعر رغم بساطته ، الا انه يلقى ضوءا على جانب انسانى من حياة شاعرنا ،

وعلاقاته مع الناس . وهو لون كاد يفقده الإدب فى هذا الوقت ، ولا باس من معرفته عند الشعراء الفطاحل الذيـــن تعاطوا اساليب البلاغة ، وعرفوا طرق البيان معرفة الدارس المطلع الذى ينفذ بعقله وقلمه الى ما وراء الكلمة ويبدع من الحروف جنات خالدة :

ومن القصائد الفكاهية التى نظمها على لسان صديقه الهادى العبيدى ، عندما ترك الادب واشتغل خضارا ، هذه القطعة :

لا بارك الله فِي الاشْعَارِ والغـــــزلِ
وبارك اللهُ في البطيـخِ والبَـــصـــلِ

وكـل ما كان مـن فـن ومـن ادب
فـدى لأحقـر ما عنـدي مـن البقل
وضلة لمن استعـوت قلـوبهـم
دنيا الفنـون وما فيهـا مـن الخبل
قوم يعيشـون بالأحلام هلا زكوا
يا ليـت شعـري بالاحلام والأمل
ويحسبون وهم في طيطر ظهروا
آن التكحـل في العينيـن كالكحل
كـم جنة انشأوا للنـاس قد دفقت
أنهارها مـن عتيق الخمر والعسل
وكـم خيـال طغى فيهم فأوهمهم
أن العبـاد لأهـل الفـن كالخول
وان هـذا الوجود الضخم مملكة
لهـم عليهـا نفـوذ الفاتح البطل
والكون مضـح لما يأتون ممتثـل
لما يريدون من اثم ومن خطل
ويلهما من حياة بعث ملتها
بيع الطلوق بلا حرص ولا أجل
واليوم قد صرت مشغولا أخا عمل

يَا بَارك اللهُ لِي فِي ذلِكَ الْعَمَلِ
أقَومُ قَبْلَ الضّحَى والشّمس ضاحكةٌ
«ما الشمس رادِ الضُحى كالشمسِ في الطّفل
ابيعُ ما اشْتَرِي لِلنَّاسِ كلّهِم
مِن الخُضارِ وأصْنَافٌ من الغِلَلِ
وكلّ يَوْم غَذائِي سفرة حَمَلَتْ
بالخَمْرِ والحُوتِ واللّحْمانِ والحَجَلِ
ورب حسناء مِنْ أهْلِ اليَهودِ أتَتْ
تَشْرِي فاخذ منها الحقّ بالقُبَلِ
ورب أخرى عجوزًا لا أبيع لها
حتَّى ولَوْ دفَعَتْ لِي المَال بالْقُلَلِ
هذا سبيلي فلا تُبدُ وامعارضةً
وآمنوا انه من أحْسَنِ السّبُلِ

شعر الهجاء :

وهناك نوع اخر من الشعر ، كان لسيدى مصطفى فيه باع طويل ، وهو شعر الهجاء البرىء الذى ليس وراءه حقد ، ولا ضغينة ومن ذلك هذه القطعة التى كتبها فى صديقه محمد العربى ، وقد سماها « لزومِ ما لا يلزم »

يَا طُفَيْلِيّا عَنِ الفَنّ نَزلْ
« اعتزلْ ذِكْرى الاغاني والغزل »

واتـرك الشعْـــر ولا تَحْفَــلْ بِــــه
انَّمَـا مَشْيُــك فِـي الشِّعْـــرِ قــزل

والنْعَـبْ البَيْلُــوط في القَهْـــوةِ اذْ
أنْتَ فِيــه عَبْقَــرِيّ لـم تــــزل

وَدَعِ التَّحْـرِيـرَ واقْعُـــدْ فـأنَــــا
سوف أهْجــوكَ إلى أن تعتــــــزِلْ

حَظُــكَ التَّــاعس ألقَـــاك إلَــــى
أصْفَـر النَّـاب وشيكـــا قــدْ بَـزَلْ

وَرَوَى مِنْ كُـلّ مَـا تَعْرِفُـــــهُ
حِينَمَـــا كنْـتَ ضَمِيــرًا فِـي الازَلْ

وقد اجابه محمد العربى عن ذلك بابيات منها :

فَتِّشْ لِنَفْسِكَ حِرْفَــهْ   غيـر القَوافي الْمسفَّـه
فالشِّعْرُ مَاءُ نَمِيـــرٌ   لَمْ تَرْتَشِفْ مِنْهُ رَشْفَهْ

ومن قصائده الهجائية ، قصيدة كتبها فى ثقيل كان يتردد على مجلسهم بـ « نفطة » . فعندما ضاق به ذرعا قال :

يَا قَوْمُ هَـلْ تَعْرِفُـونَـهْ   وَهَلْ شَهَدْتُمْ فُنُـونَهْ
وَهَلْ رَأيْتمْ أعـــابيــــثَ عَقْلِـهِ وجنونَـه
وَهَلْ سَمِعْتُمْ سخَافَــا   تِ فِكْرِهِ ومَجُونَــه

سَطَا عَلَي بِلَيْـــل كَالسَخْطَة المَلْعونَـــهْ
فِي زَوْرَةٍ لَمْ تَكُنْ حُلْوَةٌ وِلاَ مَـيمُـونَـــه
يَمْشِـــي كَمِشْيَةِ دِبٍّ بِغَلْظَةٍ وَخُشُـونَـــهْ
وَلاَ بِسا بُرْنُسًـا في السَـــوَادِ كالشِفُـونَـــهْ
ذُو طَلْعَةٍ كَظَـلاَمِ اللَّيْـــلِ. الذي تَعْـرِفُـونَـهْ
وَقَامَةٍ فِي اعْـوِجَـاجٍ لَيْسَتْ بِذَاتِ لُيُـونَـهْ
وَظِلِّـهِ حِينَ يَمْشِـي فِي الثِّقْـل كَالْكَمْيُونَهْ
يَرْتَـاد فِي الحَي تَايـًا اوخبـزةً مَعْجُـونَـــهْ
أو تمرة أو حســاء أوْ دُونَ هَـذَا ودُونَـــهْ
اولَغْـوا قَوْل بِلاَطَـا ئِـلٍ يُعِيدُ شُجُـونَـهْ
وَكُلُّهَا مُـزْعِجَـاتٌ بِالاجْتـرا مَشْحُـونَـــهْ
أليْـسَ هَـذَا اجْتـراءٌ وخِسـةٌ وَرُعُـونَـــه
فَيَالخَيبـة مِـنْ للصـلاَح. قَـد يأملونَـــه

ومن الاخوانيات ، الرسالة التي بعث بها لمحمد بن فضيلة، عندما طال تغيب الشاعر عن مجلس اصحابه بتحت السور ، حيث يقول

مِنْ مصطفى في غيبةٍ طويلةٍ الى اخي فِي الفن بِنْ فْضيله
تحيـة وقبلـة في الخـــدّ وقهوةً تشربهـا مِنْ عِنْدِي
فخذهـا تكريما لداعي شوقكم لنَا ومَا نَعْرفهُ من ذَوْقِكم

كَتَبْتُ للاخوانِ هـَذا الرّجـزَا فـِي ليلَةٍ واحدةٍ قـَد نـُجـزَا
فكَيفَ حَالُ ولدي الدّعاجي وصَاحبي سيَ عمر القهواجـِي
وقل الى الهادي العبيدي يا أخي فارقتكم فضاع مني كل شَيء
فسلِّم الأمر الى دمـاغكـم فهو الذي يملأمن فراغكم
واسأل اخـِي بـِكبدٍ مجروحـَه قديسة الجميع للاّ تـُوحـَه
مَا بـَالها تركتِ المذياعـَا وخلفت اروا حنَا جـِيَاعـَا
امَا ابن عيادٍ فماذا يَصنَـعُ هل اكتفى ام هو د وما يُبْدعُ
سَمعتُ أغنيته فـي حـوا وهو بهذا فائز مـِن تـَوا
اما انـا فحالتي جميلـة أسَامـِرُ الاخوان كُلّ لـَيْلـَة
وانظمُ الاشعار بالبيتيـنِ يصحبني ذُو البوق عز الدين
نَختالُ بين جبل وبـَحْـرِ من زمن الصّبح لبعْدِ العَصر
وأرصدُ الجـَمَال حيثُ كَانـَامُقاطـِعا من أجله الخـِلا نـَا

ولعل من اشهر ما كتب فى هذا ، قصيدته فى الهادى العبيدى ، كسوة الهادى جديدة » ولم اثبتها لانها منشورة بالديوان ومتداولة بين الادباء والرواة . من اطرف ما وجدت له هذين البيتين ، بعنوان عرش الورد » وقد علق عليهما انهما كتبا على حانوت حلاق :

مَلِكُ الزّهور الوردُ هـَذا عـَرشُـه

فِي طِيبَتِهِ وجَمَالِهِ وجَلالِهِ
كُلّ الشَّبَابِ رَعِيَّةَ لِلِوائِهِ
يَعْطِيهِ مِن دَمِهِ العزيزِ ومَالِه

وله غير هذا ، ولكنى اكتفى هنا بما اثبته ، وقد اردت من ذلك التعرف على بعض جوانبه ، لا الاتيان بكل ما قاله فى هذا الغرض ، وهناك من الاشعار ما فيه نوع من الهجاء الحقيقى ، تجنبته لانه يتناول اشخاصا معينين ، منهم من مات ومنهم من ينتظر .

ولعل اقذع هجاء وامره ، هو الذى وجهه الى المستعمر ، فقد كان مشحونا بالحقد والبغض والكراهية والاحتقار ، وقد بلغ اوجه فى هذا النوع فى قصيدته ملحمة « بنزرت التى كتبها ايام حرب الجلاء . حينما كانت النار مشتعلة بالثغر » . والوطنيون يموتون بالعشرات ، والضحايا يسقطون بالمآت ، على مذبح الحرية والفداء ، عند ذلك ثارت ثائرة الشاعر ولم يعد يبالى بما يقول ، فتراه يخاطب المستعمر فى حدة وغضب قائلا :

يا ابن الخنزيرةِ هل تذكر
اذ مزق شملُكم هِتْلر
« وسْتوكا » تهدّم وتدمر
خربت باريس ولم تعمُر
ففرت تنوح وتسعبر

مفضوح العورة لم تستتر
تشكو الالمان وتستنفر
وقفاك صقيع مستقذر
كالجيفة قدرك أو أحقر
والوجه بما تلقى أغبر
والجفن قريح متفطر
ولسانك في فمك الأبخر
يتلجلج ذعرا ويثرثر
ورجالك مفرش من يفجر
فهزائمكم طول الأعصر
قد كانت ضحكة من يسخر
انسيت « جياب » وما دبر

شعر المدح :

هذا الغرض المتضخم في ادبنا العربي ، والذى صار ممجوجا لكثرة ما تداولته من الاقلام ، على مر العصور ، هل توجد مبررات لشاعر متاخر ان يتناوله في شعره . وان يتصدى كذبا وزورا في اغلب الاحيان لوصف اشياء ، وتعظيم اشخاص. واعطاء كل ذلك تهاويل وابعاد : هي ابعد من الواقع واقرب الى الكذب ، والزور منها الى الحقيقة ، بعد ان اصبحت قاعدة ابدع الشعر اكذبه في مقام الفرضيات المضحكة.

لبعدها عن المقاييس المعاصرة ، ولتخطى النظرة الجدية لها فى هذا العصر بالذات .

شاعر عزوف عن المدح :

وفى حديثنا عن شعره لابد لنا من ان نتعرض لغرض المدح فيما كتبه . وقد راينا من قبل ان له فى شعر المدح نظرية خاصة . وهى ان المدح ليس المقصود به ذات الشخص المعينة . وانما هو تخليد للمثل الباقية والاثار والاعمال التى يقوم الممدوح بها . وان هذه الاعمال باقية بينما الاشخاص هالكون. وكثيرا ما نشدنى وهو يتحدث عن هذا ، بيت ابى تمام المشهور :

ولولا خلالٌ سنها الشعر ما درت
بناةُ العُلَى مَن أين تؤتى المَكَارِمُ

فالشعر من هذه الناحية مخلد للمكارم ، وسان للخلال ، ولكن خريف برغم ذلك عزوف عن هذه الظاهرة ، قليل الانشاد فيها . حتى اننا رايناه فى ايامه الاخيرة رغم رواج سوق الشعر ينزوى ويصمت ويرى ان الشعراء الذين يكتبون فى الوقت الحاضر ، كانوا فى الماضى بكما ، لم ينطقهم الا العطاء والامن . بينما نراهم فى ايام الشدة صامتين ، لا ينبسون ببنت شفة ، لان الخوف يخرسهم ، ولكنى كمسجل لكل ما اعرفه عن تاريخه الشعرى . ارى من واجبى ان انبه الى القصائد التى شارك بها فى مدح الامراء والملوك . ولكنى الح من جانب آخر بان الدافع الى ذلك لم يكن الطمع . وهو من هو فى الزهد والقناعة . ولكنه الاعجاب ببعض الاشخاص ، والانسياق مع بعض التيارات ، جعله يكتب هذه القصائد التى

تكاد تعد على الاصابع والتى هى فريدة فى شكلها ومضامينها من ذلك اربع قصائد فى اثنين من ملوك الدولة الحسينية وهما المنصف والامين ، واول هذه القصائد كتبها فى اوت 1942 فى بيعة المنصف باى بالملك حيث يقول منها :

مَحمّدُ المُنْصِفُ ابْنُ النَّاصِرِ انتصرت
أيامُهُ الغُرُ فِي عزّ وتَمكِين
تَنَسَّم العرش في الخضراء يملأهُ
مَناقبا جمة شتَّى الأفانِين
يلوح التَّاج مَزهُوّا بِمَفْرقِه
ويَهْتِفُ الشَّعْبُ حرّا غَيْرُ مَغْبُونِ

ثم حذف منها المدح بعد ذلك ، وجعل لها عنوانا جديدا ، وهو « اشواق » وابقى لها مطلعها القديم وهو :

هَبَّت نَسَائِمُ أوطَانِي تُحَيِّينِي
سَقْيًا لِتِلْك المَغَانِي والبَسَاتِينِ

وهى اكثرها فى وصف الواحة ، وقد زادها ابياتا تحدث فيها عن طائر الجريد المشهور « بوحبيبى » ، وهى التى يقول فيها

اذ ارتقَى بُوحَبِيبِي فِي مَنَابِرِه
أثار كُلّ هَوًى فِي القَلْبِ مَكْنُون

مستَـــرشِفــا نسمَـــاتِ الفـخـــرِ مكتحِلا
هِمَّا عَلَى الافقِ مِن رسَمِ وتَلْويـن
مُسْتَوحِيــا بَسَمَاتِ الشَّمْسِ يُرقِصُهَا
نَدى الرياض باطواق المَيَادِيــــــن
مَرجَعـــا مِن تَرانِيم المنـــى نَغَمـــا
جزل المَقاطِعِ مرتوبِ المَوازِيــــــن

وكان فى نهاية القصيدة مؤثرا حقا ، عندما تحدث عن اشجانه نحو الارض وتعلقه بتربة اجداده حيث يقول :

تلك الفَراديس أهْـواهَا وسَاكِنَهَـــا
وافْتَدِيهَا عَلَى بُعْدِ وتَفْدِينِــــي
يَا أهْل ودّي ان غَال الرّدى جَسَــدِي
فَفِي رطِيبِ الثَّرى مِنْهَا أعِيدُونِــي

وقد كان البيتان فى مضمونهما وصية نفذت بعد وفاته ، وحمل جثمانه الى نفطة حيث دفن بها ونقشا على شاهدة قبرة، اما القصيدة الثانية فهى فى مدح المنصف باى عند جلوسه على العرش الحسينى ، كتبها فى جويلية 1942 ومطلعها :

اسلـــم لقيت بَشَـائِـــرا وسُعُــودا
وكُسِيت مِن حُلَلِ الهَنَــاءِ بُرُودا

ورغم انه كتبها فى سن الشباب الا انها متينة السبك قويـة البناء ، تغلب عليها ديباجة المدرسة التقليدية الحديثـة ومنها :

ومَنحْـت أمتـك الكـرامـة كلّهـا
والحـبّ والاخـلاص والتعضيـدا
أرصدت لـلأحْـداثِ عزما مـاضيـًا
متحفـزا للنـائبـاتِ عتيـدا
أوليتهـا بصرا يراقبُ سـاهـرًا
يقْظان مكشوف الغِطاء حديـدا

اما القصيدة الثالثة فقد كتبها فى مدح الامين باى سنة 1948 ومطلعهـا :

العرش مبتهجٌ بهذا التَّـاج وبِـحُسْنه وضِيائِـه الوهّـاج

وقد وصفه بقوله :

ام من يصول كصولة الحجاج

بينما الرجل وديع هادىء ، لا يعرف الحركة ولا يهتز لشىء حتى ولو كان هذا الشىء افتكاك ملكه وانتزاع تاجه .
اما القصيدة الرابعة فهى مدح الامين باى ايضا ومطلعها :

مـرحـى فـقد مـلك النّهـى بُـرهـانُـهُ
وابـان سرّ كِتابِـه عُـنوانُـه

وهناك قصيدة اخرى كتبها فى عيد جلوس محمد الامين سنة 1948 عارض بها القصيدة الاندلسية الشهرية التـى مطلعها :

البرقِ لائِح من انْدَريـــن   هَملت عَيْناكَ بالماء المعِين

وقد نسيت مطلع هذه القصيدة ، لانه اغفلها ولم ينشرها ولم يتحدث عنها . وما اذكره بهذه المناسبة ، انني كنت مصاحبا للقافلة التي حضرت عيد الجلوس في المرسى ، وكان فيها من الادباء منهم الشيخ العربي الكبادي ، وجلال الدين النقاش وعثمان بن منصور ، والقصار وكل واحد منهم جاء وبيده قصيدة . ولكن الشيء الذي ما زالت اتذكره جيدا انني لم ار واحدا منهم يقرا قصيدته في ذلك الحشد على مسمع الباي ولم اعرف السبب الى الآن .

أميـــر المؤمنيـــن :

وعلى نفس روى القصيدة الاندلسية راينا له قصيدة في ديوانه «أشوق و ذوق» هنا بها المرحوم محمد الخامس بمناسبة عيد جلوسه على العرش سنة 1952 وقد دخل بهذه القصيدة فـــى مسابقـــة ونجحـــت القصيـــدة بالجائـــزة الاولــــــى ، وقد كان فيها ملهما حقا لانه يدين بـــولاء روحي ، للمرحـــوم محمد الخامس ، ويكن له كل آيات الولاء والاكبار . لانه جمع خصالا لم تجتمع في غيره من الملوك ، وقد رايناه يمدحه مدحا تلقائيا في اكثر من مناسبة ، كما في قصيدته الصادية التي كتبها بمناسبة مؤاتمر الحرمين الشريفين ، في افريل 1948 وقراها بالخلدونية ، فكنا نراه يقول في خلافة العلويين وما تركوه في المغرب الاقصى من مآثر ما تزال باقية :

سَـلاَمٌ الى الشَّعبِ الابِـــيِّ وَحِـــزبِـهِ
وَسُلْطَـانِـهِ مَـلاَحَ بَـــارِقُـهَا وبِـصَّـــا

إمَامُ الهُــدَى لَيْثُ الكِفَاحِ كَجَدِهِ
أبِي حَسَنٍ والنَّصُّ قَدْ طَابَقَ النَّصَا

خَلاَفَــةُ آل البيت مَــدَّت رِوَاقَهَا
وَمَن نَرتَجِي دُونَ الامَامَ لَهَا شَخْصَا

دَحَاهَا أميرُ ٱلمُؤمِنِين مُحَمَّــدٌ
فَمَا ان تَرَى فِيهَا اعوِجَاجًا وَلاَ نَقْصَا

غَدَا حَسَنُ فِي الملكِ دُرَّةَ تَاجِــهِ
وَعَائِشَةٌ كَانَت لِخَاتِمَــةِ فَصَّــا

ومن القصائد التى كتبها ابان الاربعينيات ، قصيدة فى مدح عبد العزيز آل السعود ، سنة 1942 واعاد تنقيحها سنة 1952 عند زيارة الامير فيصل الى تونس اهداها الى عاهل نجد والحجاز ومطلعها :

فِي جَبِينِ الشَّمْسِ مِن فَوقِ الحُجُبِ
مُشْرِقٌ مَجْدُكَ يَــا صَقْرَ العَــــرَبِ

ومنها قوله فى مدح هذا العامل :

مِــن ذُرَى نَجْــدٍ بَدَت رَايَاتُــــهُ
خَافِقَاتٍ مَا عَلَيْهِــنَّ حُجُــــب

تَحتَــهُ جَيْــشٌ لَــهُ مِن صَبْــرِهِ

وَمِنَ العْزَمِ رجوم وَشهب

مِن بَنِي يَعْرُب يَجْرِي دَمُهُ

ثَائِرًا بِالعِزّ يَغْلِي بِالحَسَبَ

يَحْرُسُ البيتَ وَيَجْرِي عِنْدَهُ

جَدوَلُ الشرعَ طَهُورًا لَم يُشَبَ

وقد ذكرت هذه القصائد للحقيقة والتاريخ . ولا يعيب صاحبها انها قيلت فى غرض المدح ، وفى طبقة خاصة بعينها . لاننا نعرفه انه لم تكن له اغراض خاصة ومطامع وراء اقواله . ولكنه كان يصدر عن سليقة وطبع . ولست بعد هذا انكر الظروف التي يقع الشاعر تحت قبضتها ولا يستطيع منها انفصاما لانها تتحكم فيه فيقول ما ليست من طبعه ، برغم ان هذه القصائد ليست كلها نتائج لظروف خاصة ، لان فيها ما املاه عليه طبعه ومذهبه فى القول :

وقد رايناه متحرزا فى اخر ايامه ، من الانسياق فى تيار المدح ويعيب على الشعراء كثرة القول ، فى هذا الغرض فيقول مخاطبا الزعيم الحبيب بورقيبة ، فى قصيدته الشهيرة ، التي قالها بمناسبة عيد النصر :

حَبَّذَا يَومُكَ الذي أنطقَ البُكْمَ

وأعْطَى الوَرَى وأغْنَى وأجْزَلَ

وهو يعنى بالبكم الشعراء الصامتين ، الذين كانوا ايام الكفاح لا ينطقون ولا ينبسون ببنت شفة ، خوفا من المستعمر، حتى اذا جاء الرخاء وهبت رياح النصر . اخذوا يتناوبون الصياح ، رغم انهم لم يكن لهم مبدا يقفون عنده .

المحتوى



تم طبــع هذا الكتــاب فى شـــوال
1397 / سبتمبـــر 1977 بمطبعـــة
الاتحـــاد العـــام التونســـى للشغل
تـــونـــس

عـــدد النـــــاشــــر : 101.6.77

من منشورات الدار العربية للكتاب

اعــلام :

حــاه الطاهر الحــداد : أحمد الدرعــى

الــرازى من خلال تفســيره : عبد العزيز المجــذوب

الاديب المفكر أبو حيان التوحيدى : على دب

ابن خلــدون وعلوم المجتمــع : د. محمود عبد المــولى

أحمد الفقيه حسن حياته وأدبــه : محمد مسعود جبــران

الدار العربية للكتاب المقــر الرئيــسى : عمارة « وفــاء » شارع غومــة المحمودى ـ ص. ب. 3185 « طــرابلس ـ الجمهوريــة العربية الليبيــه « الهــاتف : 47.287 ـ الفــرع الــرئيــسى : 43 مكــرر، نهــج جوغرطــة (ليســابس سابقــا) الجمهوريــة التونسية ـ الهاتف : 282.100

الثمن : 0،530 د. ل. ـ 0،760 د. ت.